ذكريات
تسعينية
مجموعة قصصية
سارة كرم

الأعمال الكاملة

t.me/kotbhm

ذكريات تسعينية

مجموعة قصصية

الطبعة الأولي
الكتاب: ذكريات تسعينية

المؤلف: سارة كرم
تصنيف الكتاب: مجموعة قصصية
تصميم وإخراج الكتاب : سامي أبو سعدة
لوحة وتصميم الغلاف: للفنان الفلسطيني/ عماد ابو اشتيه
المقاس : 14 × 20
رقم الإيداع : 2816/ 2014
الترقيم الدولي : 2-22-6458-977-978
التجهيزات الفنية : مؤسسة يسـطرون للطباعة والنشر والتوزيع
3 ش صفوت - محطة المطبعة - شارع الملك فيصل - الجيزة
جمهورية مصر العربية

طباعة وتوزيع الكتب في جميع أنحاء العالم
01157760052
01229300029

رئيس مجلس الإدارة : عماد سالم

محفوظة جميع الحقوق

ذكريات تسعينية

مجموعة قصصية

سارة كرم

يسطرون
للطباعة والنشر والتوزيع

لماذا نكتب القصص؟

تعلمنا كتابة القصص وضع أنفسنا مكان الآخرين، التسامحَ معهم وتقبل الاختلاف، تمنحنا سعةَ أفق ومرونة أكبر في التفكير، تجعلنا أكثر قدرة على ضبط أعصابنا وعلى تقبل تنوع وجهات النظر، أن نتعاطف مع الآخرين وأن نفهمهم؛ ذلك؛ لأننا حين نقص نكتب عن شخصيات قد لا نتفق معها في شيء، نضطر لتقمصها أثناءِ الكتابةِ، للإحساس بها وتفهم دوافعَها، فنحن نكتب عن المجرم كما البريء، وعن صاحب الرذيلة كما صاحب الفضيلة، القصص هي البوابة الأكثر عمقًا وصدقًا على حقيقة الوجود الإنساني، دائمًا وقبل كلِّ شيء تعلمني كتابة القصص أن أكونَ إنسانًا.

سارة كرم

ارتطام

الإثنين/ ٢ سبتمبر/ ٢٠١٣

إلى روائي آخر..ليس أ.ت.س

كنت قد قررت أن أرسل هذه الرسالة إلى روائيٍّ آخر تمامًا، ولهذا السبب تحديدًا أرسلتها لك أنت، إذ لا علاقة لك بها، وإذ إننا نتجرأ حين لا نتجرأ على فعل أشياء معينة على فعل أشياء أخرى، ربما تشبهها أحيانًا، وهذه هي إحدى المفارقات التي تحكم أفعالنا كبشر ما بين الإقدام والإحجام..لسبب غامض أحس دائمًا بشفقة تجاه المشهورين، وأحس أكثر برغبة مبهمة في البَوْح لشخص مشهور بشعوري المتعاطف هذا كأنِّي حين أفعل ذلك أكون قد تضامنت مع قضية المشاهير في العالم.

ها أنا أقدم على الكتابة إليك كأني مقدمة على القيام بعمل خطير، وفي تسعة وتسعين وتسعة أعشارٍ بالمئة من الحالات فإن مردوده يساوي صفر. من الصعب جدًا، بل يكاد يكون من المستحيل، أن يهتم شخص مشهور بحديث واحد من معجبيه خصوصًا حين يكون مشهورًا أكثر مما ينبغي؛ يصبح معجبيك كالنمل الذي يحاصرك من كل مكان، ليس في النمل أية إشارة للاحتقار؛ هي فقط لفظة تدل على أعدادهم المهولة والغفيرة، وعلى حجمك بالنسبة إليهم فهم ينظرون إليك بانبهارٍ بينما تضطر أنت مع مرور الوقت ومع زيادة عددهم إلى الشعور تجاههم بالاعتيادية وعدم الاكتراث.

هناك نوع من الإحساس الخفي بالمأساة واليأس يربط المشهور بمعجبيه؛ يصابون بالإحباط، لديهم دائمًا رغبات غير مشبعة بصدده، يريدون منه أشياء لا يستطيعون الحصول عليها، شعورهم بالعجز والخيبة تجاه ذلك يتسم بأنه قابل لأن يكون شعورًا أبديًا. لأنهم يرونك خارقًا للعادة يتوقون لأن يكونوا غير عاديين مثلك بينما تتحرق أنت شوقًا في داخلك لتكون واحدًا من هؤلاء العاديين. لا..

لا تناقشني فأنا أعرفك جيدًا! وأعرفهم جميعًا«من يشبهونك»..مع أني لم أكن يومًا مشهورة إلا أني أعلم عن مشاعر المشاهير..دعني أكمل من فضلك..لا تقاطعني!

هكذا كما قلت لك..إنهم يرونه كائنًا خارقًا للعادة أو على الأقل فإنه مختلف.. بينما يتأملهم هو وكأنهم جميعًا متشابهون..يكادون أن يكونوا بالنسبة إليه كائنات متطابقة..عفوًا..هل قلت يكادون؟ إنهم متطابقون بالفعل! وتبدو علاقتهم معه كأنها علاقة واحدة تكرر نفسها لآلاف ومئات الآلاف وربما الملايين من المرات. يرقبونه من بعيد متهافتين ومتصارعين على الاقتراب، يحاصرونه حتى يكاد يختنق وربما أصاب أنفه ما يشبه الجدع لهذا السبب!، إنهم مبهورون أكثر مما ينبغي، لكن أولئك المبهورين لا يعرفون شيئًا عن أحلام يقظة المشهور. ولهذا السبب يداخله شعور خفي يجعله يشتاق لمن لا يأبهون به ولا يهتمون لشهرته.. يحاصره حنين أن يصبح عاديًا بحيث يكاد يذبحه في الظلام بسكين حسرة بارد من نوع خاص(الأمنيات التي نعرف يقينا أنها لن تتحقق) فيفسد عليه هناءة نومه..يتمنى لو يندس بينهم ويتطابق معهم تمامًا بحيث لا يمكن تمييزه – وبما أنهم متشابهون– عن أي واحد منهم!

أعرف بالضبط ما الذي تفكر فيه..ستقول أني أبالغ قليلا..وأنّ الأمور لا تسير على مثل هذا النحو دائمًا، وأن الشهرة في نهاية المطاف قد تكون بالنسبة للبعض نعمة إلهية من النعم! وأن...، لكن هذا كله لن يفيدك، لأن الأمر لن يسلم حتى مع أولئك الذين يكرسون حياتهم كلها، وأعتى جهودهم الجبارة في سبيلها، ويضيعون أعمارهم في طلبها، لأنهم مجانين شهرة. إنهم في النهاية يعانون بسبب شهرتهم..لا..لا تقل أنهم لا يعانون! فلا تحاول الإنكار.

أنت بالذات تنتمي إلى نوع خاص من المشاهير..هؤلاء الذين يلعنون حظهم سرًا، لأن الشهرة قد لحقت بهم أو كانت من نصيبهم حين قسم الله الأنصبة على العباد..هؤلاء البشر الغامضون والمتناقضون الذين يريدون أن يحتفظوا

بخصوصيتهم- حين تكرُّ الشهرة على الباب تفرُّ الخصوصية من النافذة- وفي الوقت نفسه يكتشفون أنهم قد خلقوا للقيام بأعمال لسوء الحظ تجلب الشهرة! ولسوء الحظ أيضًا..سيموتون إن لم يقوموا بها، لأنهم لا يستطيعون العيش بدونها. لعلك تتذكر قول الشاعر ريلكه: «اعترف لنفسك ما إذا كنت ستموت أم لا لو أنك حرمت من الكتابة. وقبل كل شيء، اسأل نفسك في أهدأ ساعات الليل، ألا بد أن أكتب؟» أرجوك..لا تجادل بأن هناك مهنًا أخرى قد تجلب الشهرة لأصحابها أكثر من الكتابة فهناك أيضًا كتاب مشهورون وأنت وحدك مثال حي على وجودهم.

أما أنا أيها الكاتب فهل ستصدق لو قلت لك أنني لو قابلت مطربتي المفضلة في الشارع مصادفة لتركتها ومضيت؛ إشفاقًا على حالها من كثرة المعجبين ومطاردتهم لها وخشية من أن أزعجها؟ بل أزيدك من الشعر بيتًا بأني لو ارتطمت بها مصادفة أيضًا، لاعتذرت لها بهدوء، كأنها شخص عادي لم أعرفه يومًا ولم أسمع عنه في حياتي. لتركتها مندهشة من لا مبالاتي بنجوميتها ولجعلتها تسأل نفسها: هل حقًا أن هذه الشابة لا تعرف من أكون؟! ألستم بحاجة أحيانًا يا معشر المشاهير إلى شعور مثل هذا الشعور؟ ألن ترتاحوا ولو لنصف دقيقة لو مر بكم شخص ولم يعرفكم؟ أرأيت كم قلبي عطوف و كبير وإلى أي حدٍ أنا متضامنة مع قضيتكم.

والآن سأبرهن لك على هذا كله..كم رسالة قد وصلتك اليوم من قراء ومعجبين، وكم سوف تقرأ منها، وهل سوف تقرأ هذه الرسالة نفسها، ولو قرأتها هل سوف ترد؟! كم رسالة تهملها كل يوم..وكم رسالة تضيق بها ذرعًا وكم رسالة أخرى تعجبك، لكنك تهملها لأنك قد اعتدت على مثل هذا النوع من الرسائل..هل أنا على خطأ؟ وهل ستقول لي إذا كنت مخطئة؟! يمكنك أن تعتبر هذا كله هذيان امرأة تعشق القراءة والكتابة قبل أن تنام..لا أكثر..احترامي.

المعجبة العاقلة

س.أ.ك

الثلاثاء/ ١٠ سبتمبر/ ٢٠١٣

إلى قارئة أخرى..ليست س.أ.ك

سيدتي..أشكرك كثيرًا على رسالتك البديعة، ويبدو أنكِ تمتلكين موهبة في الكتابة.

أتمنى لكِ مستقبلاً باهرًا..خالص تحياتي.

أ.ت.س

لقد خيب أملها؛ رسالته كانت مقتضبة أكثر مما ينبغي..على الأقل فقد كانت تنتظر منه تحليلاً مماثلاً، يتفق أو يختلف، قليلاً أو كثيرًا مع تحليلها لعلاقة المشاهير بالمعجبين.

ومر شهران منذ ذلك الحين..

السبت/ ٩نوفمبر/ ٢٠١٣

في ذاك المساء، كانت قد وطنت عزمها على حضور الصالون الثقافي الذي سيكون محاضرًا فيه..انتقت لها مقعدًا خلفيًا في زاوية معزولة قليلاً بحيث تستطيع أن تراه دون أن يلمحها هو.

رقبته باهتمام طيلة الوقت، وأنصتت لمحاضرته عن الرواية المعاصرة، وقد تطرق في حديثه إلى دور الرواية في الظروف التي تعيشها البلاد وهل لا زال هناك من يقرأ الأدب ويهتم به كما يهتم بالسياسة؟..ثم أكملت الإصغاء لباقي فعاليات الصالون. في الختام..تهافت عليه الحاضرون يريدون أخذ صورة معه أو نيل توقيعه العظيم على الروايات..بعضهم كان ينتظر فرصة ذهبية لخمس دقائق متواصلة من الحديث يكللونها بنجاح إعطائه أعمالهم الأولى؛ ليقرأها فيما بعد

ويدلي برأيه فيها..لم تكن تشك في أن رأسه كان مصابًا بالصداع. لملمت أوراق مجموعتها الأولى التي لا تعرف لماذا أحضرتها معها اليوم! وسط هذا الزحام.. وانسلت خفية إلى الخارج محاولة أن لا تلفت دقات كعبها العالي النظر.

على الطريق السريع كانت تسير بخطىً وئيدة بمحاذاة الرصيف وهي تفكر في فعاليات اليوم وفي محاضرته على وجه الخصوص..كانت شاردة وفجأة ارتطم بها شخص ما بطريقة أربكتها. لم تعرف إن كان بسبب شرودها أم بسبب سرعته وعلى من سوف تضع الحق؟

كان يسير بسرعة رهيبة وإن لم تكن ركضًا، لكنها كانت تشبه الركض على الهادي أو على الماشي! خطواته كانت واسعة وطويلة..كأنه يهرب من شيء ما أو كأن شبحًا غير مرغوب يطارده ويخشى هو من أن يلحق به..متجهمًا قليلاً إن لم يكن كثيرًا ربما بسبب وجع ما. التقته وجهًا لوجه وحملقت في تفاصيله للحظات، لكنها مرت من جانبه بالضبط وربما لامس كتفها كتفه. وكان مشدوهًا لأن تلك الجميلة لم تعره بالا، أيعقل أنها لا تعرفه حقًا؟! وحاول أن يبرر لنفسه الأمر: جميلات شكل وفارغات عقل..جميلات لكن جاهلات..لا يفقهن شيئًا في الثقافة والأدب ولا يعرفن شيئًا عن المثقفين والأدباء.

❖❖❖

الأرجوحة

في كل ليلة من أيام الأسبوع السبعة، الليالي الفاتنة للهو والتنزه في الحديقة، كنتُ أراها قادمةً من بعيد لتبدأ سهرتها التي تنتهي عند منتصف الليل تقريبًا. بعد ذلك الوقت، لا يصح أن يظلَّ أحد موجودًا، ولولا الأمان الذي كان يعم تلك المنطقة السكنية التابعة للمستشفى، والمخصصة لسكن الموظفين والأطباء العاملين فيها؛ لما كان لبعض الأطفال أن يبقوا إلى ذلك الحين. الحديقة التي كانت مألوفة للجميع، والتي تتكرر فيها الوجوه نفسها يوميًا بحيث إنّ أيّ وجه جديد يكون من شأنه أن يلفت الانتباه فورًا ويثير التساؤلات؛ كانت تتكون من مساحات خضراء ممتدة وأخرى تخترقها الأشجار، بضعة أراجيح متناثرة هنا وهناك، وملحق بها ملعب لكرة القدم له باب مفتوح عليها، كان مفروشًا بالرمال، وفي أقصى طرفيه تقبع شبكتي مرمى إحداهما كانت ممزقة، في الحقيقة، لم يكن هذا الملعب مخصصًا لعقد مباريات جادة إطلاقًا وكثيرًا ما كان يبقى مهملاً لأيام دون أن يفكر طفل في دخوله. وحدهم الأولاد المراهقون، كانوا يقررون أحيانًا عقد مبارياتهم الصغيرة فيه، وصديقتها ذات الشعر البني الناعم والعينين بلون البندق كانت تصر أحيانًا لسبب غامض على دخوله، وعلى أخذها معها خصوصًا حين يكون فارغًا، تقول لها: تعالي لنتمشى هناك. أما ملعب «التِّنِس» فكان معزولاً بجدار فاصل كثيرًا ما كان الصغار يسترقون السمع عبره إلى الرجال اللاعبين خلفه. لا..هذه ليست ذكريات حديقة، هذه قصة الأرجوحة!

كانت الصغيرة ذات الفستان بشعرها المعقوف وراء ظهرها على شكل ضفيرة تجلس بينهن فوق الأرجوحة الدوارة الصغيرة ذات المقاعد الخمسة ضجرة ومتعبة. صديقاتها الثلاث؛ ذات الشعر الأسود مثلها المربوط على هيئة ذيل فرس، وذات الشعر البني السائب بنعومة، وذات الشعر البني المجعد

المنتصب فوق رأسها، في المنتصف تماما، على شكل كعكة «شوكولا» خشنة. لأن ضفيرتها كانت تلازمها أيام السنة كلها؛ كانت تضيق بها ذرعًا، تتمنى لو تغيرها يومًا، كانت تحلم بتسريحة جديدة، بعد تجربتين أو ثلاث جاءت النتائج شنيعة؛ كان منكوشًا كما تنكش الفراخ طعامها، والدتها أقنعتها: الضفيرة تبقي الشعر مسرحًا وجميلاً..وهكذا استسلمت فعادت ريما لتسريحتها القديمة. أما ذات الكعكة، والمعطف البني الفاتح الذي يلازمها طيلة الشتاء، وأخيها الصغير الذي يرافقها كظلها في أغلب الأوقات فلم تكن تتمنى شيئًا، كانت تحب كعكتها. وواثقة في نفسها، كانت ذات الذيل تحب ذيلها، رغم أنها كانت تحلم أحيانًا ببعض التغييرات إلا أن ذلك لم يكن ملحًا أو ضروريًا. تتذكر ذات السائب التي كانت ساخطة وتشتكي، لأن والدتها لا تعرف كيف تضفر لها شعرها، شعرها السائب يزعجها، تود لو تحكمه بشيء ما، بتصفيفة تلمه وتكبح جماح انطلاقه مثل..مثل ضفيرة؛ تلك الضفيرة الحلم التي لم تأتِ أبدًا. قالت لها: تبدلي؟! لا.. هذه ليست ذكريات رؤوس؛ هذه قصة الأرجوحة!

كانت تكبرهن بعام واحد وترى في هذا العام سببًا كافيًا لمحاولة فرض سطوتها عليهن أحيانًا، على الأقل فهي في المدرسة أما هن فلم يطرقن أبوابها بعد، إنهن صغيرات ولا يعرفن مصلحتهن، ساذجات، ما خبرتهن في الحياة؟! هكذا كانت تبرر الأمر لنفسها، وربما لم تكن تحتاج لهذا التبرير كثيرًا، لأنَّ انبهارهن بكونها في عامها الابتدائي الأول بينما هنَّ يتحرقن شوقا لارتياد المدرسة كان يعطيها دافعًا كافيًا يجعلها تحتفظ بسلطتها ومكانتها، هي الكبيرة والعاقلة والأم! أوامرها يجب أن تطاع ونواهيها يجب أن تجتنب. لا..هذه ليست ذكريات صديقات!

في كل ليلة، كانت تترك الأرجوحة الدوارة كراقص تنورة* معتذرةً:

«أنا متعبة..لقد دوختني» وتنسحب كقط مشاكس يتظاهر بالبراءة، رويدًا.. رويدًا ذاهبًا إلى الأرجوحة الكبيرة كأن كرة صوف أو سمكة ملائمة لوجبة لذيذة

في انتظاره. كانت الأرجوحة الكبيرة تتحرك في اتجاهين فقط؛ هكذا من الشمال للجنوب(فوق-تحت) وغالبًا ما كانت تتحرك ببطء، لأن أوزان المراهقات من عمر الثالثة عشر حتى العشرين التي كانت تحتل مقاعدها دائما تثقلها.

في كل مرة، كانت تندس وسطهن ببراءة الأطفال، وحجتها الخبيثة دائمًا أنها لا تحب الأرجوحة الصغيرة التي تشعرها بالدوخة والغثيان (ربما كان هذا صحيحًا، لكنه لم يكن سببًا حقيقيًا!) وتفرض نفسها بقوة ناعمة ثم تتظاهر بالاستحياء وتطرح السؤال متصنعة الاستئذان بعد أن تكون قد جلست فعلا: ممكن أقعد معاكم؟ ربما لدهشتهن أو صدمتهن كن يصمتن، هذا حال الأغلبية، واحدة ترحب باقتضاب: تفضلي، وثانية تلوي بوزها في امتعاض واضح ربما تحاول أن تخفيه عبثًا، الثالثة ترمقها من أقصى الرأس لأخمص القدم كأنها منظر مثير للاهتمام، وأخريات يتابعن ثرثرتهن غير عابئات بمجيئها. واحدة من بينهن فقط كانت ترحب بود، ويخترق قلبها شعور غريب بأنها مسؤولة عنها، فقط لأنها صديقة أختها؛ تلك الجالسة هناك، تختال على مهل سري بذيلها الجميل مع أنه لم يكن طويلاً!

تغني ذات البوز بصوتها البديع فيثنين عليها:

- صوتك حلو قوي .
- غني تاني.
- لديكِ الموهبة.
- من الممكن أن تغني في مسرحيات فصوتك ملائم.
- سيقتلني بابا !

وتستأنف الغناء. تلك السمينة الشقراء تحكي لهن كيف أنها قد وطأت ماء حمام السباحة المتنقل، الذي وضعوه في المربع الأخضر الصغير، المطل على عيون

المارة أمام باب منزلهم بمايوه، وكيف غضب أخوها بشدة لهذا الأمر وقال أنه سوف يتبرأ منها بينما أبوها لم يبالِ! تقول لهن أيضا أنها تتمنى لو تصبح ممثلة.. تتذكر الآن كيف كانت دهشتها ذات يوم عندما لمحت بعد ذلك بسنوات فتاة تمثل قصة حب في فيديو كليب، لا تعرف من غناه ولا تتذكر كلماته..مرت أمام عينيها على الشاشة، كانت تشبهها إلى حد كبير. تتنهد واحدة وتقول: أتمنى أن أصبح طبيبة. ويتبعها صوت أخرى: نفسي أشتغل سكرتيرة.

تتكلم ذات البوز، تحكي عن قصة حبها فينصتن لها باهتمام..تخرج عن اندماجها فجأة كأنها تلمحني لأول مرة..تلوي شفتيها مستعدة للهجوم..«أنتي قاعدة معانا ليه؟ قومي العبي مع أصحابك» تدرك لحظتها تمامًا أن تلك المراهقة البغيضة تخشى من فضح أسرارها العاطفية..تحزن لأنها تفكر فيها بهذا السوء.. لا تعلم أنها ليست شريرة إلى هذا الحد! تريد أن تقول لها: سرك جميل وأتمنى أن يكون عندي مثله. تعوزها الجرأة، تصمت ساكنة ومرتبكة لا تعرف ماذا عليها أن تفعل أو تقول. (في الليلة القادمة ستقول لها: لا بس انتي لمضة قوي..إيه اللماضة دي كلها؟ تسألها ببراءة: يعني إيه لمضة؟ - يعني انتي ما تعرفيش؟! - والله ما اعرف. - كذابة. تلمزها التي إلى جانبها: عيب..اتركي البنت في حالها.)

تخرج البنت المبوزة عن طورها وتصرخ فيها: قومي ياللا.

تنفلت أعصاب أخت صديقتها: إنتي بتكلميها كده ليه؟! ملكيش دعوه بيها.

تتدخل الشقراء ملطفة: دي صغيرة يا جماعة..مش فاهمة حاجة..يعني مش هتفهم اللي انتي بتحكيه يا سوسو.

تعترض سوسو: مين قالك إنها مش فاهمة؟!

وسرعان ما يشارك الجميع في إبداء الرأي فتتداخل الأصوات المؤيدة والمعارضة بصخب:

- لتذهب وتجلس مع من في عمرها.
- لا شأن لكِ.
- هيا يا صغيرة..اذهبي.
- إياكِ أن تنصرفي!
- هيه كانت مرجيحة أبوكي؟!

في كل مرة كان الجدل ينتهي بأن تنسل خجلة من بينهن فجأة وكلها أسف داخلي أنها تسببت في هذا الصراع. تعود إلى صديقاتها قبل أن تتركهن مجددًا تجنبًا للدوخة. وتجلس وحيدة فوق الحشائش الخضراء، ترقبهم جميعًا من بعيد، وهي تقلب الأسرار التي عرفتها الليلة في رأسها، وتفكر أنها لن تخبر صديقاتها أبدًا كم أن أحاديثهن تافهة ومملة! وأنهن لا يمتلكن قصصًا مثيرة ولا مشاريع أحلام مثل تلك التي تسمعها من الكبيرات. ولا بد من الانتظار حتى تحين الليلة القادمة ليتسنى لها أن تكرر المشهد نفسه، لاستبدال دوخة كاملة بنصف دوخة أخرى! لن تستطيع أن تمنع نفسها من الاندساس وسطهن غدًا رغم فضيحة الأمس. لا..هذه ليست قصة الأرجوحة؛ هذه حكاية البنت التي كانت تركبها!

*رقصة شعبية يرتدي صاحبها تنورة بألوان الطيف ويظل يدور مع الألحان وربما يحمل شيئا فوق رأسه أثناء الدوران.

❖❖❖

حالة برد

- الأشياء التي تحدث في الواقع، يمكن تصديقها بسهولة مهما كانت صعبة أو مدهشة، ولكن حول هذا الحدث إلى قصة ولن يصدقك أحد.

- نعم..أعرف..بل وسيتهمونني بخلو قصتي من عنصر الواقعية ومن الصدق الفني.

- وضع يده على صدره: آه..إنّ.. (أراد أن يقول له شيئًا، لكنه قاطعه..)

- دعك من هذا، سأحكي لك قصة واقعية حدثت بالفعل.

- هات ما عندك..لا..انتظر، هل هي حزينة؟

- لن تعرف بعد..سوف تعرف عندما أحكيها.

- أكره النهايات الحزينة، ليت نهايتها تكون سعيدة هذه المرة..

- إذن، اسمعني جيدًا: رأى الدنيا منذ يومين، ثلاثة، لا تتذكر بالضبط، جاء إليها ببنية ضعيفة وحجم صغير أصغر ممن هم في مثل سنه!

لفته في فوطة ناعمة، ووضعته إلى جوار المدفأة الآمنة..أوصت ابنتها الكبرى قائلة: تعرفين أنني مسافرة اليوم، غدًا أعود، اهتمي به جيدًا، لقد وضعته عند المدفأة، بعد قليل خذيه إلى إخوته.

- ناظرة إليها بحسرة : أمي..أأنتِ متأكدة ؟ شكله ميت!

- لا ..مغمىً عليه فقط، لابد من أنه سوف يفيق.

بعد قليل، خرج الشقي من الفوطة، وأخذ يلهو ويلعب ويتنطط كالقرد،

فرحت كثيرًا وأعادته إلى مكانه الأول حيث إخوته الأكبر حجمًا وبصحة جيدة يلهون مثله ومعه.

لم تمضِ أكثر من عشرين دقيقة حتى عادت أدراجها لتطمئن عليه..أوه، يا إلهي، حالة صرع، كان يتشنج، لقد عاودته حالة البرد الشديد، إنه يرتعش مجددًا، يرتعش بشدة. حملته بسرعة وأعادته ثانية إلى جوار المدفأة..وبين اليأس والأمل، بين أن يتحسن وأن...، قررت ألا تلقي إليه بنظرة أخرى حتى يحين الصباح.

في الصباح، فور أن استيقظت من نومها، وقبل أن تغادر سريرها، تذكرته.. هرعت لتطمئن على صحته..هالها المشهد..كان ملقىً كشيء..كشيء ميت! عيناه مغمضتان كليًا..ودون أن تلمسه عرفت أن أطرافه متيبسة..كان هناك، ساكنًا لا حراك فيه، كأنه قطعة خشب مسندة! قفصه الصدري لا يعلو ولا يهبط..روحه تبدو وكأنها ليست فيه..عيناه مغلقتان بشكل يدعو للأسى..كل ما بقي منه مجرد جسد جامد، ووجه ثابت على وضع استغاثة، بملامح حزينة!

بقلق، تناولت سماعة الهاتف، ضغطت على الأزرار، يا لليأس! الرقم يعطي «مشغول»..وأخيرًا، ها هو، صوت جرس..تحدثت معها: أمي..أعتقد أنه قد مات.

جاءها صوتها عبر الهاتف بهدوء: لا بأس، من المؤكد أنه قد أصيب بنزلة برد، لدينا منه الكثير! وأقفلت الخط.

إكرام الميت دفنه، ولكن، تناولت كيسًا بلاستيكيًا صغيرًا وبحذر ورفق من يمسك الحي، أمسكت به..أحست أصابعها بأطرافه تحت الكيس متخشبة تمامًا ودافئة على عكس المفروض..هل قتلته المدفأة؟ شدة الحرص والخوف؟ لا أحد يعرف! ووضعته في صندوق القمامة بأسف! هل أعجبتك هذه القصة؟..حسنا.. سأصارحك بالحقيقة: تلك ببساطة كانت قصة حياة كتكوت!

نظر إليه دون أن يعلق، وربما أعاقه نفس النَّارَجِيلَة الأخير الذي سحبه عن

ذلك..وعلى الكرسي..مثل كل زبائن المقهى المخضرمين، الهائمين على عقولهم في المجهول، المتفكرين فيه، المتأملين في الملكوت..يمم وجهه شطر الأفق البعيد، ونظر، ثم..مثل كل الناس اللذين يأتون للدنيا في مشارق الأرض ومغاربها، وشمالها وجنوبها، وعند كل خطوط طولها وعرضها، مثل أبناء آدم جميعا..آه.. لقد فارق الحياة!

- ماذا؟! يا رجل..ألن تقول رأيك في قصتي الجديدة؟

- ماذا جرى..يا أستاذ؟

- لا شيء..كنت أحكي له قصة الكتكوت.

- سبحان الله.

- وحدوه.

- ما (حدش واخد) منها حاجة.

و تعالت أصواتهم بالصياح والجلبة.

❖❖❖

بطاطس

كان الكتاب هناك، جالسًا يأخذ مكانه بزهو بين الكتب..منذ ثلاثة أعوام تقريبًا وهو ينتظر!

أحبت بشدة كتاب ألوان أخرى*..جلست مع نفسها تفكر في أسباب ذلك فاكتشفت أنها كانت دائمًا تكره ولا تطيق كتب السير الذاتية، لأن تلك الكتب كانت تحتوي على قدر كبير من الملل، وآخر لا بأس به من الصلف والغرور الخفي الذي يجتهد صاحب السيرة في إخفائه أثناء الكتابة، لكن على من؟! هكذا قالت لنفسها.

أحبته، ليس فقط لأنها شعرت بأن كاتبه يروي قصة حياته كإنسان عادي له قصة حياة كسائر البشر، ولكن ربما أيضًا، لأن السيرة الذاتية هذه المرة كتبها روائي«رجل يعرف جيدًا كيف يكتب القصص»، ولهذا جاءت سيرته مشوقة جدًا وممتعة كقصة..وأخيرًا، لأنها تتفق معه في كثير من الأشياء..لأنه يسرد بشكل ممتع وتعجبها كثير من عباراته..ولجمال نصوصه التي أجادت المترجمة البارعة سحر توفيق ترجمتها.

أفاقت من خواطرها على صوت الزيت المغلي فزعة..هرعت إلى المطبخ.. هاهي قد حرقت البطاطس..نظرت إلى أخيها الداون* المرح وهو جالس أمام «الطبلية» يحدق بعينين متشوقتين إلى طبق البطاطس الفارغ..كان ينتظر الطبق الآخر..الدفعة الجديدة من البطاطس.

عادت لتكتب: تتردد كثيرا في قراءة كتابه كاملاً بسرعة..تريد أن تقرأ هذا الكتاب ببطء..فهي لا تحبذ أن تعيد قراءة نفس الكتب التي قرأتها من قبل..تبدو لها عبارة تولستوي: «الكتاب الذي لا يستحق أن تقرأه مرتين لا يستحق أن تقرأه مرة

واحدة» عبارة براقة، لكنها لا تطبقها، بمعنى آخر: لا تؤمن بها بشكلٍ كامل..أو ربما تحتاج إلى تعديل فهمها لها ليصبح: الكتاب الجيد يستحق أن تقرأه حقًا عشرات المرات، ولكن إن لم تقرأه للمرة الثانية فهذا لن يعني أنه ليس كتابًا جيدًا!

بالنسبة لها..لا تجد جدوى من إعادة القراءة وبخاصة «جدوى نفسية». إنها لو أعادت قراءة نفس الكتب فلن يجديها هذا نفعًا في أن تستعيد نفس الأحاسيس الأولى للحظات قراءة نفس هذه الكلمات حرفًا بحرف..إن الأثر الذي تتركه الكتب الجيدة في نفسها..الكتب التي تحبها..ينطبع في داخلها للأبد..وتصبح له هناك جذور عميقة لا مرئية..لكنها مع ذلك لا تستطيع استعادة نفس الأحاسيس الأولى ونفس متعة القراءة للمرة الأولى..لهذا السبب تريد أن تقرأ هذا الكتاب ببطء..تخشى أن تنفد متعتها..ثم لا تستطيع استعادتها بعد ذلك..لهذا السبب وضعته على الرف.. سوف تعود إليه فيما بعد..عندما تشتاق لبعضٍ منه وهي تقلي بطاطس..

*كتاب ألوان أخرى هو سيرة ذاتية ومقالات وقصة للروائي التركي أورهان باموق..

*أطفال متلازمة داون

❖❖❖

التصميم

كنت أعرف منذ البداية أنكم تعشقون البهرجة، البساطة في حد ذاتها يمكن أن تصيبكم بالغثيان ومن المحتمل أن تشيحوا بوجوهكم عن أي مظهر بسيط. لأنَّ عيونكم تعودت على البحلقة في كل ما يخص الآخرين؛ تحتاجون إلى كمية من التفاصيل المعقدة والفاقعة لكي تتمكنوا من ممارسة هوايتكم المفضلة. أنتم في حاجة باستمرار إلى أن يجذبكم شيء ما..ليس لديكم وقت لتضيعوه في التأمل والاختيار..عندما كانت الأضواء مسلطة على مدونتي، وقعتم في جرتها كما يقع النحل على الزهر..أنا الآن وحيد..أفكر في مدى تهافت نظريتكم عن الحياة .. وعن أنها يجب أن تعاش باستسلام وخنوع وبكمية معقولة من بلادة العقل.

أنتم دائمًا جاهزون للتلقي..لستم جاهزين لاختيار ما سوف تتلقونه.. تعبدون المظاهر وسوف تحصلون في امتحان البحث عن جوهرة على درجة صفر.

- لأتمكن من كتابة قصة جديدة، كنت أقوم ببعض التمرينات والطقوس الخاصة، تعرف أن الألوان والصور تلهمني، قمت بتغيير التصميم أكثر من مئة مرة..لا، لا تقل أني مهووس بالبهرجة مثلهم، واحسب حساب أني في النهاية، وقبل أن أغلق الحاسوب استقر قراري على تصميم بسيط للغاية بعد أن حصلت على الطاقة الملهمة التي أبتغيها. بعد يومين، وعندما أعدت تشغيل الحاسوب، وجدت أن عدد الزوار والتعليقات قد قل..بعد مرور أسبوع، يقل أكثر، هاهو في انخفاض مطرد..هل تصدق أن هذا يحدث فقط لتغيير التصميم؟! لم أكن أعرف أنهم يدخلون إلى المدونة ليتفرجوا عليه، كنت أعتقد أنهم يهتمون بما أكتبه، ظننت أن كتابتي تجذبهم كمغناطيس، من المحتمل أنهم كانوا يقرؤون بضعة جمل ويتجاهلون البقية من كل موضوع ثم يعلقون بفرحة الابتهاج بالتصميم، يثنون على ما لم يقرؤوه..هل تعرف؟

سوف ألغي هذه المدونة، سوف أحذفها. لا تقل أن زيادة عددهم تتناسب عكسيًا مع التصميم الجديد..عندما أسلط ضوء الكشاف تجاه عينيك هل تشعر بالسعادة؟ سوف أحضر شطيرة الجبن من الثلاجة..هل ترغب؟ دموعي تغرقني، طوفان الأمل في الأمان، طموحاتي الصغيرة عندما كنت طالبًا في الجامعة، كان لا يزال فينا شيء من براءة الطفولة في ذلك العهد! أتذكر كيف ابتهجنا يوم التخرج واحتفلنا بجنون، اعتبرناه فاتحة خير، لم نكن نعلم أنه فاتحة بؤس وبطالة، كان يوم نحسنا، لم يكن يوم حظ أو سعد. ألم تدرِ بآخر مصيبة؟ أمي باعت قطعة الأرض اللي حيلتنا حتى تقيم عرس أختي الصغيرة في قاعة «سِحر». تصور؟! اشترت لها ثلاث غسالات؛ واحدة أوتوماتيك للأطفال، وواحدة أوتوماتيك للكبار وواحدة عادية..لا تقل أننا ملاك أطيان يا حبيبي..كم مرة قلت لك أن جدي كان يفلحها ثم كانت من نصيبه بعد قانون الإصلاح الزراعي..سوف نشحذ عما قريب، أمامي ثلاثون عامًا على الأقل حتى أفكر في الزواج، بيني وبينك الزواج حدث عادي، شيء من مليون شيء آخر يمكننا عمله ومليون حلم بديل باستطاعتنا أن نحلم به، ولكنها نظرتنا السخيفة للحياة كمجتمع، هي التي تجعلنا ننظر للزواج على أنه الحدث الأهم على الإطلاق في تاريخ العمر، والذي يحتاج إلى كل هذه الضجة التي ثلاثة أرباعها نفاق اجتماعي وفشخرة كاذبة، وكل هذا الاحتفال غير المبرر، والابتهاج الهستيري المريض، ألم ينتبه أحد وهو واقف يتفرج على رقص الناس في فرح إلى أنه يقف في زار؟! خالد ماذا دهاك؟ الجبن من النوع الذي تحبه يا فتى..لا تقل أني كنت أتحدث مع نفسي كل هذا الوقت..هل أنت نائم؟ آه يا عزيزي.. كم مرة قلت لك لا تنم في المطبخ، لديك طقوس غريبة يا رجل، لست وحدي؛ ليس الكتاب فقط من يمتلكون طقوسًا عجيبة تخصهم، صحيح أن الشقة كلها غرفة وحمام ومطبخ، مساحتها على بعضها لا تكفي لكي «تنجعص» وتمد رجليك

أمامك في جلسة مريحة، ولكن الغرفة على أية حال أوسع من المطبخ، ما الذي يجبرك على أن تكور نفسك هكذا ؟..استيقظ..موعدنا مع مسابقة الوظيفة الجديدة يقترب..آه وسع يدك حاسب اللابتوب ما..ما هذه الزجاجة التي تسقط من يدك..لماذا يتراخى كفك هكذا؟ يا خالد...

❖❖❖

السقطة

-١-

اسمي عادل..أعمل في مجال الفوتوغرافيا، أتشاهدون هذه الصورة؟ إنها صورة حقيقية..لقد التقطتها حين كنت هناك؛ رجل يسقط ممسكًا براية بيضاء، يتيمة ووحيدة، وقتها لم يكن مع أي رجل آخر أو أية امرأة راية مماثلة..لقد كان مجنونًا بالفعل، وأنا أرقبه من نافذة غرفتي المطلة على ذلك الشارع نصحته ألا يفعل، لكنه لم يمتثل لنصيحتي.

ربما كان يعتقد أنهم سوف يمجدونه كبطل، ولكنهم لم يفعلوا! رغم أن قنوات كثيرة قد نقلت صورته؛ لقد أصبح مشهورًا، ولكنه الرجل المشهور الذي لم يتحدث عنه أحد ولم يسأل أحد عن اسمه، إنه مغمور على أية حال!

الأبله؛ من كان يظن نفسه؟ مصلح مجتمعه؟! أم فيلسوف عصره وزمانه؟ لقد وقف في المنتصف وأخذ يرطن بكلام عن التهدئة والسلام والمحبة وروح الشعب الواحد.. كيف؟! وهل كان يظن أنهم سوف يستمعون له؟! وهم لم يستمعوا لمن هم أهم منه وأعلى مركزًا ووضعًا وثقافةً ووعيًا في المجتمع؛ النخبة.

هل كان تصور هذا الرجل، كلا..لم يكن هذا التصور تصوره وحده، ولكن هل كانت شجاعته وتضحيته بنفسه أكثر منهم جميعا؟ هل كان أنبلهم وأكثرهم وعيا؟! الجاهل - من وجهة نظرهم- خريج الإعدادية، الوغد الذي يقف بين زملائه المعتوهين! لقد حدث هذا بالفعل وقد رأيته بأم عيني.

-٢-

يجلسون في كراسيهم الوثيرة، يتحدثون للجماهير الغفيرة البلهاء عبر الشاشات أو هم ضيوف في هذه البرامج، يخطون بأقلامهم عبارات الفتنة والوقيعة، يشعلون نارها في النفوس ويحشدون الناس لأجل الفرقة، يحرضون ويزيدون من تأزم الأوضاع، يدسون السم الأرعن في عسل الثورة المجيدة .

-٣-

كانت الأحجار تسّاقط وتنهال فوق رؤوسهم، أصوات الرصاص الحي والرصاص المطاطي وطلقات الخرطوش كانت تدوي بعنف مصوبة تجاه الجهة المقابلة..بعض النيران مشتعلة هنا وهناك..الغازات المسيلة للدموع تملأ الأجواء..في ذلك الشارع كانت تدور رحى حرب غريبة؛ كان هناك شعب وقف وتحمس وهتف وتقاتل مع نفسه!

وأخرج الرجل المجنون شيئًا عجيبًا من جيب بنطاله الرسمي، منديلاً أبيض من قماش قديم، ذلك الذي كانوا يستعملونه في الزمن الماضي لأغراض أنتم تعرفونها؛ وسيلة غوث ونجدة أثناء الزكام، تقف به أم كلثوم ملوحة بخفة وهدوء على المسرح إذا كان من الحرير، تهديه الحبيبة للحبيب – ذكراها الخالدة – ليحتفظ بها لحظة وداع صعبة .

-٤-

في المنتصف تماما، وقف ولوح ورطن بصوت عال كلمات عن التهدئة والسلام والمحبة وروح الشعب الواحد..بحذر من يقترب من عدو لدود تقدم بعض المجانين من الجهة المقابلة إليه، خطوة.. خطوتين ثم يتراجعون – إنها أزمة ثقة – خطوة .. خطوتين .. ثلاث ثم يتراجعون، خطوة..اثنتين.. ثلاث..أربع ثم دوت أصوات الرصاص من جديد مصوبة تجاههم.

عاد الرجل ليقنع زملاءه أن يتوقفوا عن إطلاق الرصاص ثم عاد ليتقدم نحو الجهة المقابلة دون أن يتبعه مجنون واحد.

سلمية..سلمية..سلمية..سلمية. بعض المجانين علت أصواتهم بهذا الهتاف وفجأة، قذفت الأحجار من جديد. أعاد الكرة غير مرة، ظل واقفا بينهم في المنتصف تمامًا كبوصلة تشير لشمال وهمي لم يتحقق! ثم ينعطف شرقًا..ثم ينعطف غربًا كأنها لعبة شد الحبل. وهؤلاء يتقدمون ثم يتراجعون خيفةً وحذرًا والآخرون ثابتون في أماكنهم..تارة يتوقفون عن إطلاق الرصاص ثم يعودون لما نهوا عنه..استمر الرجل في جنونه وتمادى؛ وعلى أية حال فقد دفع ثمن غلطته واندفاعه وتهوره المشئوم..للمرة الأخيرة نصحته أن يرجع عن غيه، لكنه لم ينثنِ عما يفعله.

-٥-

فشلت التهدئة وتساقطت الأحجار واندلعت أصوات الرصاص وأشياء أخرى من جديد..وبكى الرجل بكاء مريرًا - ليس بسبب أية أنواع من الغاز - وأصابته بعض الأحجار بجروح فادحة..وأخيرًا..لا أدري؛ إن كانت قد أصابته حقا طلقة؟!..لقد سقط! هذه السقطة!

من مذكرات الشهيد عادل نجيب.

مرفق إليكِ يا لمى أشياء وصور ووثائق وشهادات أخرى عن شارع عيون الحرية - محمد محمود سابقا-

صديقـتك أمــل

تحريرًا في : ٤/ ١٢/ ٢٠٣٠

الوصمة

الكتب الموضوعة على الأرفف دون أن يقرأها أحد

الفناجين الموشاة بالزخارف مغلقٌ عليها دولاب التحف

دون أن يشربوا فيها

بكلات الشعر التي تخلصتِ منها

كلها كانت علامات ضمن الزمن!

«الخوف والقلق لازماني طيلة حياتي..التفكير في أن تقدم على عمل أشياء لم تعد تصبح معقولة ومقبولة بالمقاييس الحديثة للمعقول والمقبول؛ كأن ترسل رسالة لابن خالتك عبر البريد بدلا من أن ترسلها عبر الهاتف المحمول أو تتخلى عن سيارتك لتستبدلها بعربة تجرها الخيول..غير المألوف شبح ظل يطاردني.. ذكريات قديمة لعنة الحنين إليها لم تبرح روحي للحظة واحدة..ظللت أقدم رجلاً وأؤخر الأخرى..بقيت في مكاني وأغلب الظن أنني كنت جبانًا أكثر مما ينبغي.. الحماس الزائد عن الحد، الجبان، لم يكن حماسي هذا ليتجاوز حدود تفكيري، لم يكن حتى لينطق به لساني فضلاً عن أن يتحول إلى فعل ملموس. ولم تكن هذه الأشياء التي كنت أتحمس لها في السر لتضفي عليّ صبغة أو لقب رجل مجنون لو أني قد فعلتها حقا ، لكنها كانت لتضفي عليّ صفة غريب، متقوقع ، كائن بشري يعيش في عصر آخر، عاجز عن التكيف، رجعي، ولكن آه ماذا أقول لكم؟!

لقد استجمعت قوتي للقيام بكل هذه الأشياء ذات يوم..هكذا، دفعة واحدة؛ إن عار الجبن الذي كنت غارقًا فيه من أقصى رأسي إلى أخمص قدمي؛ ذلك العار

الغامض المجهول الذي لم يعلم به أحد على الإطلاق غيري وحدي..قد ظل جاثمًا كعبء ثقيل فوق صدري وما كان يدفعني إلى الاستمرار حقًّا في الحياة هو أنني كنت أمني نفسي دائمًا بأني يومًا..يومًا ما لا بد أن أمتلك الشجاعة الحقيقية لأتخلص من هذا العبء. رغباتي التافهة وأحلامي الصغيرة المكبوتة بالمقاييس الحديثة للمهم والكبير كنت أعزي نفسي دائمًا بأني يومًا ما فاعلها ومحققها لا محالة.

أردت أن أغسل عاري القديم؛ فاستجمعت شجاعتي ذات يوم وانفجرت، ومذ ذاك الحين وقد التصق بي عارٌ آخر جديد، عارٌ من نوع معلوم. الآن..وأنا على مشارف الخمسين من عمري؛ أعرف جيدًا أنكم لا تحبون حتى أن تقرءوا قصص الرجال الخمسينيين..الأعمار الصغيرة تروقكم وكل ما هو جديد، حديث العهد ومتطور لا يزال يجد مكانًا له في قلوبكم، ولكن ماذا سيتعين عليّ أن أفعله؟ ما باليد حيلة وأنا رجل مسكين..من يبالي لأجلي؟ بل من يبالي لأجل نفسه؟!..لا زال أمل بي أن أجد من يقرأ قصتي ويصدقني ويسعى لتحريري من عاري الجديد..إن قضيتي لا يمكن تقدير الدفاع عنها بمال أو أي أجر من نوع آخر أو حتى شكور..إنها قضية الإنسان ما دام يحيا فوق هذه الأرض وتحت هاته السماء، قضية تمس شرف البشرية بأكملها؛ فلا يمكن تقديرها بثمن أيا كان، ولكن دعكم الآن من عاري، لنضع عاري وننحيه جانبا؛ فهو عار مزيف، أما العار الحقيقي فهو عاركم أنتم- الآن..سنرى فيما بعد..سنرى معًا ماذا الآن؟.. وماذا غدا سيكون؟»

أنهى مفتتح روايته الثانية، وقف في شرفته المطلة على منظر مقرف (هكذا اعتاد أن يصفه)، حدق بنظراته الشاردة وشعر ذقنه الصغير المتناثر في الزحام المروري الخانق، وكمن ينتقم من نفسه لسبب غامض أو من يتمنى الموت وربما كشخص حزين؛ تنشق عوادم السيارات بعمق واستمتاع..تروق له هذه الروائح

وتأسر مزاجه؛ إنها بالنسبة إليه أحلى من مذاق سيجاره الصباحي؛ هذه الروائح منعشة وقد أدمنها منذ فترة طويلة رغم مقته الشديد لمصدرها. في المساء، يختتم يومه الحافل بالقراءة والكتابة والحزن والموسيقى بتناول سيجار آخر..في تلك اللحظة، عندما كان يقف في الشرفة فكر في روايته الأولى، وكيف أنه لا واحدة من عشرين دور نشر مختلفة قد قبلت بنشرها، إنها رواية جيدة، ليس لأنها روايته، ولكن لأن هذه هي الحقيقة، لقد تأكد من هذا بنفسه بعد أن عرضها على نقاد مخضرمين قالوا آراءهم فيها بصراحة وأثنوا عليها بكثير من الدهشة والانبهار.

تذكر كيف رفض أن يقدم أحد هؤلاء النقاد لها، كان ولا يزال يقول لنفسه: لا..ليس لأن قلم الناقد الفلاني قد نطق بعدة جمل على ظهر الغلاف سوف يشتري الناس روايتي، سوف يشترونها فقط، لأنها تستحق أن تُقرأ وما دامت حقا رواية جيدة فأين هي المشكلة؟ ألأنها ليست جذابة؟ ولا تتحدث عن الدين أو الجنس أو السلطة؟ لأنها ليست مثيرة للجدل أم لأن موضوعها يتحدث عن التعليم؟ هل هي رواية مملة؟ ربما لأنها لن تحقق العائد الكافي من شطائر المبيعات التي سيفتح مجرد التفكير في لذتها وحجمها شهية أي دار نشر محترمة لها اسمها المرموق ومضمونها المبتذل في عالم النشر لنشرها بل وإعادة طبعها مرات ومرات.

تذكر كيف كان يروح ويجيء بين ممرات المكتبة التي اعتاد أن يزورها ليقتني منها كتبًا جديدة مطلع كل شهر ميلادي، تذكر جيدًا تلك الكتب الرديئة بعناوينها الرخيصة الموضوعة على الأرفف الخاصة بالكتب الأكثر غلاءً ومبيعًا؛ لم يلوث أصابع يديه يوما بلمسها، لطالما احتقر هذه النوعية من الكتب «الخفيفة» التي تبيع الوهم للناس مقابل أموالهم وتسطيح عقولهم يومًا بعد يوم، أكثر فأكثر، بنصائحها المباشرة حين تزعم أنها قادرة على جعلهم أكثر استعدادًا لفعل كذا وكذا وتحقيق كَيْتِ وكَيْت..يخيل إليه أن مؤلفي هذه الكتب نفسها كانت لهم أهداف رخيصة تمامًا أثناء تدبيجها وتحديدًا كان هدفهم الأول هو أن تصبح كتبهم هذه في قائمة الأكثر مبيعًا. تذكر على وجه الخصوص العناوين التي تخص

حالته: كيف تبيع مليون نسخة من كتابك في عام واحد؟ كيف تجعل كتابك يدخل قائمة الأكثر مبيعًا؟ كيف تكتب كتابًا ناجحًا؟ كيف تحصل على جائزة أدبية؟ كيف وكيف وكيف..ألا توجد لماذا واحدة؟! تذكر كيف تكررت الفكرة نفسها كما تدور في رأسه دائما وهو يطل به من الشرفة ذات يوم ودون وعي منه، في لحظة اشمئزاز حقيقي؛ بصق، سقطت بصقته وكادت أن تتسبب له في مشكلة كبيرة لولا أنه خفض فورًا من مستوى رأسه حتى لا يراه المبصوق عليه الذي وقف ينظر للمبنى في غيظ شديد دون أن يعرف على وجه الدقة في أي طابق ومن أي شرفة بالضبط قد سقطت البصقة؟

سار المبصوق عليه في الشارع مخترقًا مرور السيارات التي لا تنتهي وهو يلعن ويسب ويبصق أيضًا على أرضية الأسفلت الناعمة لشارع رمسيس، لقد استشاط غضبًا، حالته كانت تشي بأكثر مما يمكن أن تحمله بصقة غير مقصودة من معان عفوية ونوايا لم تكن سيئة في طياتها! في تلك اللحظة، بدا الرجل وكأن غضب السنين الماضية والأيام الفائتة من عمره كلها قد تجمع عليه. وكأنه قد استدعى كل غضبه المكبوت ليفجره في هذه اللحظة بالذات–هذه اللحظة وليست غيرها– وقد بعث غضبه المدفون من مرقده أما غضبه الأجدب فقد انفلت عقال لسانه بمعجزة فشرع في موال من «البرطمة العنيفة»، لكنه توقف عنها إجباريًا حين دهمته سيارة مسرعة وهو يلفظ «برطمته الأخيرة» كانت هذه هي آخر كلمات قالها في حياته «كلمات غير مفهومة» لشدة غضبه وانعدام تركيزه لم ينتبه للسيارة .

كان يتابع الرجل بنظراته وحين لقي حتفه قفزت نظرة الدهشة من عينيه، فركها بإخلاص غير مصدق لما رآه، شعر بالرعب للحظات وللحظة واحدة شعر بالذنب..سرعان ما استعاد رباطة جأشه وتمتم في سره بثبات الواثق من فكرته: لقد قتله غضبه وحقده على العالم..أجل! واستقرت هذه القناعة بداخله تمامًا كلما تذكر الموقف نفسه؛ في أعماقه كان يدرك أن هذا الرجل يشبهه؛ إنه

مثله غاضب وحاقد على العالم! منذ باءت روايته الأولى بالفشل وقد صمم أن يواصل كتابة الروايات على هذا النحو؛ الكتابة عن أشياء غير جذابة..قرر هذه المرة أن يكتب عن البيئة..فكر في مفتتحها الذي كتبه للتو..تخيل أن هذا الشخص الخمسيني ليس إلا هو نفسه وأنه لو قدر له أن يعيش حتى يصل إلى هذه السن لكانت هذه الكلمات هي كلماته نفسها للعالم!

مع إشراقة كل شمس ومع سيجاره الصباحي، يفتتح يومه بالوقوف في الشرفة المطلة على شارع رمسيس، يقص الشريط بذكرى المبصوق عليه ثم يضع المقص في علبة الحنين لمدن أخرى، يتذكر يوميًا أثناء هذه الوقفة العجيبة التي تتكرر بنفس تفاصيلها وأفكارها - أبدًا لا يفكر في أشياء أخرى ولا يسترعي انتباهه أي مشهد أو حدث جديد- كيف أن مدينته مزدحمة بسكانها وسياراتها وبأحيائها العشوائية والراقية..وكيف أن مكان إقامته تحديدًا لا يطل على أي منظر جميل..تستدعي ذاكرته صور المدن الجميلة التي قرأ عنها في المجلات الثقافية، والمدن الساحرة الغابرة التي قرأ عنها في كتب التاريخ..يتذكر هذا غير حانق على مدينته وغير حانق على شارع رمسيس تحديدًا، لكنه يتذكر بحب!

انتشلته من الاستغراق في طقوسه الصباحية..قطعت حبل أفكاره وتأملاته أصوات تلك الطرقات الحالمة الواهنة بإيقاعها المنتظم، على الفور عرف صاحبتها ومضى ليفتح الباب بمشاعر هي مزيج من العطف والاستياء، والشوق والملل، في طريقه القصير امتعض وتساءلت نفسه: ما الذي جاء بها الآن؟ هل يجب أن تفسد عليه «اصطباحته» ؟ هل هذا وقته؟ ماذا تريد مني؟ أكتب علي أن تفسد هذه المرأة نظام حياتي للأبد؟ كيف أقول لها دون أن أحرجها بأن لحياتي نظامًا محددًا لا يسرني أن تفسده؟ في المرة القادمة سوف أقول لها ذلك بكثير من الصراحة والأدب..وكعادته أجّل هذه المواجهة إلى الغد، ذلك الغد الذي لم يكن يأتي أبدا. ومرت به لحظة تفاؤل..ربما جاءت لتحكي له حكاية جديدة من حكاياتها الظريفة، ولكنها حكاية ظريفة في الميعاد الخطأ..لا بأس.

- أهلا..أجئتِ لتحكي لي قصة جديدة عن «الغولة» التي أكلت أبناءها؟ (قال لها ذلك دون أن يخجل من نفسه كم هو طفل!)

ضحكت ضحكتها القصيرة بصوت مسموع ثم تحولت ملامحها السمراء في طرفة عين..بدا عليها الهم والقلق..توجهت لتجلس على المقعد من تلقاء نفسها..جلس قبالتها ومرت لحظات صمت.

- كيف حالك يا ست روحية ؟ (باغتها فجأة كأنه كان قد نسي أن يرحب بها)
- نحمده ونشكره يا بني..استطردت: ابني علي..تنهدت..
- ماله؟ (بصيغة ملل محببة)
- أصبح كالملاك..يعاملني بلطف شديد.
- عجبا..أويزعجك هذا؟!
- نعم؛ لأنه ليس طبعه..إني قلقة..أشعر بأنه يخدعني.
- حسنا..دعيني أحضر الشاي، عن إذنك.
- إذنك معك يا بني.

عاد بالصينية بين يديه، وضعها ونظر إلى ساعة الحائط، كانت الساعة التاسعة والنصف صباحًا ولم تكن الست روحية موجودة. فتح باب شقته ونظر إلى بابها المفتوح؛ ترى ما جعلها تعود أدراجها هكذا دون سلام أو كلام؟ وشعر ببعض الغضب، سوف يذهب ويسألها: هل هذا أسلوب؟! ظل يطرق بابها المفتوح وينتظر؛ لم يتعود أن يدلف إلى بيت أحد دون استئذان، حين مل تجرأ ونفذ إلى غرفة المعيشة، ناداها مرارًا وتكرارًا، ولكن لا حياة لمن تنادي، بدأ القلق يتسرب إلى نفسه، كان جسورًا بما فيه الكفاية ليدق باب غرفة نومها المغلق، الشيطان الطيب يوسوس له في رأسه: لعلها نائمة، ولكن ماذا لو أن مكروهًا قد أصابها؟

امرأة شبه وحيدة وبحاجة إلى المساعدة ثم أنها على أية حال في مقام أمه. حسم لحظة تردد أصابعه على مقبض الباب؛ ماجت به الدنيا ودار رأسه بعنف، شعر بقرصات نحل حادة ومتتالية تنتاب عينيه ومجال رؤيته، وحش كبير لدهشة شريرة يلتهمه من الداخل، آه بلدغة ثعبان؛ سقط مغشيا عليه.

حينما أفاق لم يعرف كم من الوقت قد استغرق، توقفت أمامه عقارب الزمان و اختزل الكون الفسيح في غرفة القتيلة المضرجة في الدماء. تحسس الأرض من حوله برعب؛ كان يبحث عن شيء فكر في أن يستغني عنه للأبد، ولكن على ماذا سوف يعتمد في الذهاب إلى طبيب العيون؟ وهو مثل هذا النوع من البشر الذين يعز عليهم كثيرًا فراق أشيائهم التي يستعملونها؛ تربطه علاقة خاصة بالجمادات من حوله وبالأشياء التي تعود عليها. قلبه الآن يدق في ظهره..فقد حاسة اللمس..مد يده المرتعشة والتقطها دون أن يحسها بين أصابعه الملطخة بالدم.

كان يهم فورًا بالخروج لولا أن اخترق مجاله السمعي صوت بسنت جارته طالبة الثانوي وفيه رنة اللهفة والفرح: يا ست روحية.. يا ست روحية، وصوت ركضها على السلم أيضًا كما لو أنها على عجلة من أمرها لتقول للعجوز خبرًا سعيدًا؛ تسمرت مكانها واضعة يديها على فمها من الدهشة وعيناها تحملقان في رعب..اختلج صدره الذي أخذ يعلو ويهبط بصورة هستيرية شعور رهيب، حدجته بسنت بنظرة ملؤها اللوم والاتهام والذعر، أراد أن يقول لها: لا تنظري إليّ هكذا، شُل لسانه ونظر إليها باستسلام تام كأنه المذنب يقر ويعترف بجريمته النكراء ويتمنى ألا تفشي سره الخطير. اللحظات العصيبة من الصمت مرت قبل أن تقطعها اللحظات الأصعب بالدخول المفاجئ لضابط الشرطة الذي لحق بأخته صائحًا: ما الذي تفعلينه هنا..هيا سوف نتأخر؟ وقف إلى جانبها يرقبه بعين صقر؛ كان جالسا على الأرض في حالة رثة بيده التي يمسك بها منظار رؤيته وأجزاءً من ملابسه الملطخة بالدم. رشقه بنظرة الظفر أو كجازر حصل على غنيمة مجانية جاهزة للذبح وشرع فورا في إجراءات إثبات الحالة فأحضر كل

سكان البناية ليكونوا شهودًا على ما وقع ثم ألقى القبض عليه.

اقتادوه إلى قسم الشرطة وهناك كما أمام الجيران أسقط في يده؛ شعر بأنه لا مجال للدفاع عن نفسه فقد ضبطوه متلبسًا، بدا كشخص فعلها حقًا، غير أنه نادم على فعلته! استسلم للاتهام دون أية مقاومة؛ الصدمة التي أصابته جعلته شارد اللب زائغ النظرات فاقدًا لأي رغبة في الكلام؛ استجوبوه بصعوبة شديدة، لم يكن يتكلم أبدًا ولكن بصراخهم وأصواتهم العالية تمكنوا من الحصول على إشارة الإدانة «هز رأسه بالموافقة على كل ما يقولونه» تم تحرير المحضر وتحويله للنيابة العامة، سرعان ما انتهت التحقيقات دون عناء كبير فالاعتراف سيد الأدلة، سيق إلى المحاكمة، كان الاتهام الذي وجه إليه هو قتل عمد بدافع السرقة؛ فقد تبين أن المرحومة كانت تحتفظ بصندوق مجوهرات وكمية غير قليلة من المال فقدت بعد وقوع الجريمة ولم يعثر لها على أثر.

انتصب محامي الإدعاء واقفًا في قاعة المحكمة معلنًا أنها جريمة مروعة لا تقل بشاعة ووحشية عن تلك التي تخيلها ديستويفسكي في روايته الخالدة «الجريمة والعقاب»، أدلى الشهود بشهاداتهم واحدًا تلو الآخر، الجيران في مقاعدهم يمصمصون الشفاه ويضربون الأكف، يتحدثون :

- كان يعيش بيننا مجرم ونحن لا ندري.
- الذي تحسبه موسى تكتشف أنه فرعون.
- الوغد..الشيطان الرجيم!
- آه يا سفاح يا سافل..أليس في قلبك رحمة؟ كيف لم ترأف بامرأة عجوز ضعيفة لا حول لها ولا قوة..لو أنهم فقط يتركونني عليك لخنقتك بيدي هاتين!

حصل على عشر سنوات؛ ما أنقذه من حبل المشنقة هو التقرير الطبي الذي شكك في قواه العقلية؛ والتي تراجعت فعلا بشكل ملحوظ وأصابها اعتلال

مؤقت مذ حدث له ما حدث. رمقته بسنت بنظرة الشفقة ثم توارى غائبًا عن الأنظار وقد شيعته لعنات الحضور وسبابهم وعبارات الشماتة والتشفي.

القاهرة..٢٨ يناير..٢٠١١

لم يكن في انتظار شيء حين دلف إلى زنزانته شخص مجهول الهوية، لم يره من قبل وبادره بكلمة واحدة:

- البلاد!
- ما لها؟
- قامت بها ثورة.
- من ؟ كيف؟ (ناظرا بعينيه ومحركا فمه كالأبله المشدوه)
- قامت بالبلاد ثورة.
- لم أفهم!
- سوف تفهم وترى بنفسك فقط عندما تخرج من هنا.
- هل انتهت مدتي؟
- لم تنته بعد يتبقى بها بضعة أشهر.
- كيف إذن سوف..
- سوف أخرجك .
- من أنت؟
- لا شأن لك!
- ما الذي تريده؟ ما المقابل؟ لماذا؟!

- إذا التزمت بالشروط التي سوف نتفق عليها فسوف تخرج من هنا فورًا.
- هات ما عندك.
- وإذا لم تفعل ما سآمرك به فسوف تعود إلى هنا لتقبع عشر سنوات جديدة، أنت مجبر لا خيار لك!
- تبا..من أنت؟ وما الذي تريده؟
- لست وحدك من سوف يخرج..سوف تخرجون جميعًا من السجن.. ونريد منكم..
- تريدون ماذا؟
- اخرس ولا تقاطعني.
- سوف تخرجون لتنتشروا؛ تعيشون في الأرض فسادا، تنشرون الجريمة والخراب وترهبون العباد.
- لست مجرمًا.
- بل أنت قاتل.
- لم أقتل.
- إذن فسوف تقتل اليوم شئت ذلك أم أبيت!
- هراء..وإذا لم أفعل؟
- فسوف تنال الجزاء الذي تستحقه. (هدده بنظراته)
- حسنا.. اتفقنا. (باستسلام)

في تلك الليلة من ذلك اليوم خرج وأخذ وجهته إلى ميدان التحرير؛ قاده الفضول إلى هناك، أراد أن يشاهد تلك الجموع التي تهتف باسم الحرية والكرامة

والعدالة الاجتماعية، بهره ما رآه، لم يستعمل السلاح الذي أعطوه له ولم يكن في نيته استخدامه. صادفه أحد جيرانه القدامى، كان ثائرًا هناك، صاح عليه: متى خرجت؟ نعته بالقاتل والمجرم والبلطجي، اهتاج كثور لسعت عينيه للتو أضواء حمراء فهجم عليه وطعنه طعنات متتالية. يُهرول غير مصدق لما فعله إلى شارع رمسيس..دخل شقته المهجورة..أخرج دفاتره القديمة..بحث عن مفتتح روايته الثانية التي لم تكتمل..قرأ المفتتح وخيل إليه أنه هذا الرجل الخمسيني ليس إلا..ولو قدر له أن يعيش لمثل هذه السن لكانت هذه الكلمات هي كلماته نفسها للعالم! أغلق الدفتر وأشعل سيجاره المسائي..مضى بخطوات متثاقلة نحو الشرفة وتمتم: يا ولاد الـــ...تتهمونني بقتل الست روحية..يا ولاد الـــ...عشر سنين سجن ظلم..وبصق. في لحظة وطنية صادقة حزن على حال البلد؛ أراد أن يقتص لشهداء هذه الثورة ففكر بقذف نفسه من الشرفة وأن سيارة سوف تمر و...، لكنه جبن عن التنفيذ وفر هاربًا من جريمته المروعة فاستقل سيارة أجرة وهرع إلى مسقط رأسه في إحدى محافظات إقليم د.

❖❖❖

رأس على الوسادة

أو

أنثى الفسيفساء

الرجل الذي ستعشقين عقله لن يمنحكِ قلبه بسهولة. من يعرف؟ ربما إذا منحك لن تحبيه! ومن ستعشقين قلبه ستملين منه بعد فترة. أنتِ بحاجة إلى رجل تعشقين قلبه وعقله معًا؛ أنتِ طماعة..مداومتك على القراءة أعلت من سقف مطالبك في الرومانسية. كيف تمخضت روحك العشقية فجأة عن أن الحب ليس قلبًا خالصًا كله؟ لا أحد يعرف..عشقك للبنية الفوقية للمجتمع أورثكِ رذيلة الجشع المعنوي، وفوق هذا كله فالأنثى المتمردة بداخلك ترفض أحيانًا أن تخضع قلبها لسلطان رجل؛ تقولين في سرك: «الذكورية المتعفنة» التي عرفتيها عن نوال سعداوي مع أنك لم تقرئي لها يوما. صديقتك المتزوجة تسألك: هو انتي عادي كده زينا نفسي أشوف الراجل اللي هتتجوزيه في يوم من الأيام ده هيبقه عامل ازاي؟ تخجل أن تقول شيئًا ما..تأخذين الكلمة التي لم تقل من على لسانها وتقولين: تقصدين أني معقدة أليس كذلك؟! تبتسم خجلى ولا تجيب.. هي تعتقد أنكِ لست رومانسية، لا تعرفين كيف نبتت هذه الفكرة في رأسها مع أنها تعرف جيدا أنكِ تكتبين شعرًا عاطفيًا، لا تناقشينها لتغيري فكرتها، تسكتين ولا تقولين شيئًا..تتركينها للزمن ربما يغير رأيها وتتركين نفسك.

السر الذي لن تخبر به أحدًا أنَّ لديها ميولاً صوفية مفرطة تجعلها تفكر أحيانًا أنها لن تتزوج أبدًا! لكنها في كل يوم تحتضن وسادتها وتتخيل رأسًا قابعًا فوقها، هناك، إلى جانبها بالضبط!

في المصعد

الجو مظلم في الخارج، والبرج المكون من أربعين طابقًا، يقف شامخًا كالطود العظيم في الأرض، عاصفة، لكن رقيقة، بدأت بوادرها تلوح في الأفق، وتؤذن بالهبوب، حبات ندى صغيرة طفقت تنساب بوداعة، متقطعة في تسلسل حيوي بديع، على استحياء غير ممل، وهواء منعش مترب، كان يتقلب كدوامات هادئة محدودة النطاق في الفضاء الواقع بين السماء والأرض.

وحدها مثله، حضرت إلى المكان نفسه في الميعاد الخطأ، طالتهما معًا غلطة الموظف الغبي الذي علق على الحائط الإعلان الذي يقول في مقتطف منه: نرحب بكم للحجز والاستفسار في تمام الساعة الحادية عشرة **pm**..(بدلا من**Am** كانت هذه هي غلطته)..ومنذ ساعات مضت حدث أن وبخ طبيب نفسي، يدعي أنه متخصص في حل المشاكل الزوجية أحد موظفيه قائلاً:

- أيها الغبي: هل تمكنت من تصحيح خطئك الفادح، وتوضيح سوء الفهم لحاملي الإعلان وقارئيه قبل أن ينصرفوا؟

- نعم يا دكتور..آه حقيقة لا أستطيع أن أجزم، ولكنني آمل ذلك.

حملتها قدماها إلى المصعد نفسه بعد دخوله بدقيقة، لم تتمكن من رؤية وجهه، فقد كانت الجريدة التي يمسكها باهتمام تغطيه كله، بدا منهمكًا في القراءة، وأن خبرًا ما قد جذب انتباهه حتى أنه كان قد نسي أن يغلق الباب أو ربما قصد أن يحمل المصعد آخرين معه. دلفت إليه بخطوات رشيقة، وبارتباك، كانت تبحث عن شيء ما في حقيبة يدها الصغيرة، أخرجته وشرعت تتمم لون شفتيها بمزيد من الفوشيا اللامع، كانت ترتدي فستانًا أبيض، قصيرًا و مزخرفًا بخطوط الفوشيا الطويلة، وإلى الخلف ربطت شعرها الناعم القصير كذيل فرس. سرت

إلى أنفه الحساسة للروائح العذبة، رائحتها الحلوة المثيرة، قال في سره: المرأة المتعطرة زانية..زانية حقًا..أي نعم!

عزم على اختلاس النظر إلى وجهها فبدأت أصابعه تتلاعب بتردد بأطراف الجريدة، ببطء، أنزل الجريدة إلى نصف وجهه فظهرت أرنبة أنفه والنظارة الصارمة من فوقها، لقد قطع نصف المسافة وهم الآن بأن يقطع النصف الآخر ويلتفت إليها، حين حانت منه لحظة الالتفاتة، حدث ما لم يكن بالحسبان: انقطع التيار الكهربائي فجأة، وأصبحا معلقين معًا في الهواء، لا يعرفان بين أي طابق و آخر، وسيظل باب المصعد مغلقًا عليهما إلى حين ميسرة.

قال الرجل متغزلاً بوقار:آه..إنه لحظ عاثر يا سيدتي أن منعني هذا الظرف الطارئ من متعة النظر إلى وجه سعادتك.

- كنت أتمنى لو أنني قد استطعت أن أنظر إلى وجه الرجل الواقف إلى جانبي في المصعد، ولكن كما ترى..لقد انطفأت..(باحثة عن وجهه في الظلام)..

- لقد انطفأت الأنوار بسرعة شديدة نعم..أعترف لكِ بذلك..ونحن الآن معلقان في الهواء، وعمومًا فهي فرصة عظيمة جدا لندردش ونتعارف.. وقال بلهجة مبالغ فيها: إنه لقدر ذو مغزى، ذلك الذي جمعنا معًا في هذا المكان وهاته الساعة، شيء له معنى، أنا لا أؤمن بالصدف.

سألته: إلى أين كانت وجهتك؟

- إلى الطابق الثالث والعشرين..وأنتِ؟

- مثلك..لا مفر إذن من أنك تعاني بعض المشكلات مع زوجتك؟

- آه يا سيدتي..لو تعرفين ما أنا فيه!..أعيش مع زوجة مملة، أنانية، امرأة ذات عقل فارغ بكل المقاييس، كل ما يهمها من الوجود في هذا العالم هو أن تهتم بألوان بشرتها، ومكونات وجهها، وأناقتها، مع متابعة أحدث صيحات الموضة

والتباهي أمام صديقاتها بملابسها ومجوهراتها، تافهة، ثرثارة، لا شيء يضجرني في الحياة قدر أنني أعيش معها في منزل واحد.

- الاهتمام بالأناقة أمر محمود ومطلوب، شرط ألا يتعدى حدوده المعقولة وألا يصل إلى درجة الهوس أو التشبث المرضي، من المؤكد أن زوجتك تبالغ نوعًا ما في الاهتمام بزينتها.

- ومن المؤكد يا سيدتي أنكِ امرأة ذات عقل بالغ الرجحان حتى تبدي مثل هذا الرأي السديد في مثل تلك المسألة التي قد بلغت مبلغها الصعب عند كثير من النساء السفيهات..(مجاملا كعادته)

- أشكرك..(بهدوء)

- وأنتِ..ما هي مشكلتك مع زوجك؟

- أعيش مع رجل بارد، مشغول طوال الوقت، هل تصدق يا سيدي أننا لم نلتق على فراش منذ ما يقرب العامين، نعيش معًا تحت سقفٍ واحدٍ نعم، ولكننا نعيش كالأخ والأخت لا كالزوج والزوجة.

تذكر في سره أن هذا الوضع يشبه وضعه مع زوجته، كتم في أعماقه ولم يفصح خشية أن تنفر منه أو تشعر بأنه رجل بارد كزوجها الذي تشكو منه، و كنوع من التطهير سره أن يسمع بحدوث هذا عند آخرين!

وحانت منه محاولة لرؤيتها فأخرج القداحة من جيبه الأيمن، وأخرج علبة سجائره من الجيب الأيسر، وضغط زناد القداحة فأضاءت في الظلمة ضوءًا خافتًا رفعه إلى الأعلى، وباءت محاولته بالفشل، فلم يتمكن من رؤية وجهها، ولكنه استطاع أن يتبين شفتيها المصبوغتين بالفوشيا، وخجل أن يعيد الكرة فأعاد القداحة إلى مكانها دونما إشعال شيء.

في الخارج، كانت العاصفة اللطيفة قد انقلبت إلى وحش شرير، يومض بالبرق

الخاطف، ويزأر بصوت الرعد المخيف، واستحالت حبات الندى البطيئة المهذبة، استحالت إلى خطوط متصلة من المياه الغزيرة، لا تعرف الاستئذان قبل أن تدخل، ولا تدق أبواب أرضيات الشوارع، وأغصان الأشجار، وأسطح المنازل والمباني برفق كما كانت تفعل. فترة من الهدوء سادت بينهما، وكالمطر الذي لا يأخذ الإذن، شعر الرجل بشبح الرغبة يخيم على عقله؛ امرأة..وظلام..وشفتان تلمعان وتغريان بالتقبيل، وبينما هو مستغرق في إحساسه المضطرم، ونيران أشواقه التي أخذت حدتها في الازدياد شيئًا فشيئًا..قطعت المرأة هدوء الصمت قائلة:

- أيها السيد..أريد أن أعترف لك بسر..أنت رجل غريب وأنا..

- وكأنه يعرف بالضبط ما كانت ستقوله له، لم يسء فهمها، ولكنه قال مكملاً لحديثها: لا أعرفك، ولا تعرفني، وهذه هي ميزة الإفضاء بالأسرار إلى أشخاص غرباء ربما لن تراهم أبدًا لمرة ثانية..هذا يجعل الإنسان يشعر بالراحة.

- أدهشتها سرعة بديهته وفهمه التام لما أرادت قوله فأضافت قائلة:

نعم بالضبط..هذا ما أردت قوله، حينما تفضي بسرك إلى شخص غريب فهذا يعني أن سرك قد سقط في بئر عميق لن يخرج منه، وإن خرج فلن يصيبك بخروجه الضرر، يمكنك أن تفعل ذلك دونما حتى أن تذكر له اسمك، من المؤكد أن معارفك ليسوا هم معارفه أنفسهم، ومحيطه الاجتماعي ليس هو محيطك، وكل ما يتعين عليك فعله هو أن تفضي له فقط بمكنون صدرك دون أن ينتابك القلق، ولا تخشَ بعد ذلك من أن يعرف كل أولئك ممن لا تريدهم أن يعرفوا أو بعضهم بهذا السر.

- نعم..صحيح، أين سيلتقي بهم ليخبرهم بهذا؟ بل وأين ستجدينه بعد ذلك؟ لتشعري بخجل المواجهة للمرة الثانية..وبأن لحظة بوحك بسرك الكمين كانت لحظة ضعف..من المؤكد أنه سوف ينصت إليكِ بكل اهتمام، وبتواضع شخص لا يجد حرجًا فيما يسمعه، لأنه يضع نفسه مكان صاحبه، ويدرك أنه كان معرضًا للوقوع في الخطأ نفسه، لو كان- على سبيل القدر الذي نجهل قوانينه -

ليس هو، وكان شخصًا آخر! ودون تحيز، أرجو أن تثقي تمامًا وتتأكدي من أن حكمه سوف يكون موضوعيا.

تشجعت المرأة وقالت: أريد أن أعترف لك..ولا أعرف لماذا؟ أشعر بأنني مدفوعة إلى هذا الاعتراف دفعًا! شيء غريب، ولكن، أعترف لك بأنني أ..أخون زوجي منذ فترة..

خلع الرجل نظارته وقال متظاهرًا بالحكمة: إن هذا لأمر لا يبعث على دهشتي، ولا ينبغي له أن يبعث على دهشة أي رجل عاقل، فامرأة جميلة مثلك، تعيش مع رجل بارد ومشغول طول الوقت، ماذا سيصبح بوسعها أن تفعل غير ما فعلتِه؟

- جميلة، ولكنك لم ترني!
- إني أرى بعين قلبي!..(هامسا بخفوت)

وسكت برهة ثم قال: تعزيزا لهذه اللحظات الجميلة، ورغبة في أن تكون الثقة بيننا متبادلة، أود لو أفضيت لكِ بسر أنا الآخر.

- نعم يا سيدي..بكل سرور واهتمام..تفضل.
- أنا أيضًا أخون زوجتي منذ فترة و..

صاحت المرأة بابتهاج طفل صغير: هاهي الأنوار قد عادت من جديد، وستنتهي معاناتنا في هذا المكان الضيق، ولن نستمر معلقين في الهواء.

كانت تتحدث بمرح وجدية، والتفتت تنظر إلى وجهه..

كان واقفًا في ذهول، فمه بين المغلق والمفتوح، وعيناه مثبتتان عليها.. فوجئ الرجل، وفوجئت هي أيضًا، لقد كانت زوجته، ولكن الرغبة التي كانت تسيطر عليه، جعلته يؤجل تلقيه للصدمة فهوى على وجهها يمطره بالقبلات والدموع تنهمر من عينيها بحرارة وغزارة، كانهمار صنبور مياه ساخن.

مجلات

قلت لكِ مرارًا: إن كتاب مجلة «أ» يشعرونني بأنهم متعالون على قرائهم، يتحدثون معهم من فوق؛ بوصفهم أرقى وأكثر ثقافة ووعيًا «نخبة» تريد أن تسيطر على عقول الآخرين، وتقوم بالتفكير نيابة عنهم، وأنا أكره أن يعاملني أحد بهذه الطريقة. مجلة «باء» تسحرني لأنها تحترم قراءها، تعاملهم صديقًا لصديق، لا أشعر أن أحدًا يمارس غروره عليّ، وأنا أقرأها أذوب في صفحاتها، أضعها إلى جانب وسادتي ونحن نائمان.

الملف الرئيسي في مجلة «أ» دائما عبارة عن خواطر وفلسفات وسرد لتجارب خاصة بكتابها النرجسيين لا تُسمن ولا تغني من جوع أكثر من أن تتسلي بقراءتها، عندما أنتهي منها لا أجد أن عقلي قد استفاد بأية معلومة جديدة أو أن همة تفكيري قد شحذت، شجرة ثقافتي لا تثمر أو تينع. الملف الرئيسي لمجلة «باء» دائمًا يثار بطريقة تجعلني أشعر بأنني مشارك في إنجازه..ها أنا ذا أفكر وأتأمل وأستفيد بمعلومات جديدة، أتفق مع هذه الرؤية وأختلف مع تلك؛ إنني أخرج في النهاية برأي خاص لي في هذا الموضوع أو ذاك. الكتاب الذي تهديه مجلة «أ» لقرائها أحيانًا ما يحوي عبارات وأفكارًا مسمومة ، مدسوسة وسط عسله.

تذكرين ذلك الكتاب الذي رفضتِ حتى أن تلقي عليه نظرة؛ كان يتحدث عن الكتاب العملاء الذين توفاهم الله منذ عقود، أتعرفين؟ بعض كتب مجلة «أ» لهؤلاء؛ مطأطئي الرؤوس لثقافة أخرى. على عكس كتب مجلة «باء»؛ دائمًا شامخة، تفوح منها رائحة العروبة والحضارة العربية، إخلاصها العميق لثقافتنا لا يمكن أن يساورني فيه شك. ورغم كل هذا أقتني مجلة «أ» كل شهر بل وأدفع في ثمنها المزيد من المال؛ أشتريها من السوق السوداء؛ تؤنبينني دائمًا: يا لك من

متناقض! لماذا تقتنيها إذا كنت تأخذ عليها كل هذه المآخذ وتتصفحها فقط كل شهر دون أن تقرأها؟ فأخبرك بأنني: أريد أن أشعر بالأمان، لا أريد أن يطعنني أحدهم في ظهري، لا بد أن ألم كلّ شهرٍ بالعسل الذي قد دسُّوا لي فيه السم دون أن أتناولَه، لا بد أن أعرف إلى أي مدى وكيف سيظلُّ هؤلاء الكتاب يتعالون علي حتى لا يتعالى عليّ أحد في غيبتي. تنعتينني بالمجنون.

أما مجلة «ج» فتشعرني بالغثيان؛ سمها مكشوف دون مواربة، ليس ثمة عسل فيها، تتناولين أنتِ جرعاتِها بشغفٍ كلَّ شهرٍ، أخبركِ بأنكِ تقتلين نفسك..بعد عامين من الآن لن تصبحي أنتِ..لا تقتنعين بما أقول، تصرّين على مسخ هويتك واستبدال ثقافتك العربية بثقافة أخرى غريبة علينا، أحذرك: إنهم يقتلعونك من جذورك..سوف تتحولين إلى نبتة غريبة ووحشية وسط نبات مألوف ومتآلف مع بعضه البعض، سوف تعيشين لبعض الوقت، لكنك ستخسرين كل شيء وتموتين في النهاية! تضعين دستة من مجلات «ج» فوق مكتبنا المشترك، لا زلت أكرر لكِ أنها مجلة مأجورة، تقولين أن رؤيتي متأخرة عن العصر، أحاورك لأثبت لكِ أن العصرَ ليس متقدمًا كما تظنين، تعرفين الكتاب الذي أتيتُ منه بهذه المعلومة، تصفين كاتبه بمشاعر الحقد والدونية، أقرر لكِ أن الدونية ذاتها بشحمها ولحمها لا يمكن أن تتجسد إلا في مقالات كتاب «ج» وأن كاتبي المفضل شامخ مرفوع الرأس؛ رجل فخور بعربيته التي تخجلين أنتِ منها، تغضبين وتثورين، تضعين يدك فوق رأسك؛ بحركة لا إرادية تتحسسينها، تتركينني وحيدًا وتنصرفين.

أنتِ دائمًا عكسي..تشتركين معي في شيء واحد؛ كلانا لم يطلع على أي عدد من مجلة «ث» لأنها لا تصل إلى بائعي المجلات والجرائد في حَيِّنا. وبالنسبة لمجلة «د» فجميع أعدادها عندي..دائمًا يعجبني نصف العدد ولا يعجبني النصف الآخر..شعوري تجاه هذه المجلة محايد؛ أحب بعض موضوعاتها ولا أكترث بالبقية أما أنتِ فتعجبين دائمًا بالنصف الذي لم يعجبني وتتركين قراءة الموضوعات التي أحببتها، الكتب التي تكون محل رضاي هي دائمًا محل سخطك.

تذكرين يوم المعرض من الشهر المنصرم؟ طلبت منكِ أن نذهب معا وكنت أسرّ في قلبي شيئًا آخر، تعللتِ بأنكِ مريضة وأيام المعارض تكون مرهقة.. تصنعتُ أمامكِ ملامح الأسى والأسف وتهلل وجهي بشرًا حين أدرته للجهة الأخرى، كنت أعرف أنكِ تكذبين..أعددت لكِ كوبًا من الينسون، طفقتِ ترتشفينه على مهل بسعال متقطع؛ يا لك من ممثلة! ترى بماذا تفكرين؟ لماذا تكذبين علي؟ لم أفكر كثيرًا، على الفور ارتديت ملابسي، قبل أن أخرج سألتِني: متى سوف تذهب إلى المعرض؟ كذبت عليكِ وقلت أنني سوف أزوره في المساء، قرأت في وجهكِ مشاعر الارتياح ويممت وجهي شطره.

تذكرين ما حدث بعد ذلك..لقد تفاجأت بكِ هناك؛ كنتِ مع أحد كتاب مجلة «ج» تتجاذبان أطراف الحديث في حماسة ويداكما متشابكتان في دفء، رأيتكما كعصفورين متناغمين تمامًا؛ الطيور على أشكالها تقع وضبطتني أنتِ متلبسًا بالجرم المشهود مع إحدى كاتبات مجلة «باء»..في أحد أركان المعرض كنت أطبع قبلة على خدها..تعرفين أنني لا أقبل النساء أبدًا، ولكنني قبلتها. عزيزتي: لقد كنا دائمًا مختلفين، أؤكد لكِ أن زواجنا كان خطأً لابد من العمل على إصلاحه..ولذلك فأنتِ..أنتِ طالق.

❖❖❖

هذيان قاص قبل النوم

مسكونون برهبتنا من كلام الناس، وخوفنا من حكم المجتمع، وهذا الخوف يجعلنا متناقضين أحيانًا إلى حد يصدق معه أن يحصل العكس تمامًا، ويقع ما نخشى منه دون أن ندري أو نقصد..شدة الحرص مصيبة بل إنها قد تورد المهالك!

أنت لن تستطيع أن ترضي كل الناس، لأن إرضاءهم كما تقول الحكمة الخالدة هو غاية لا تنال، لكنك تستطيع أن ترضي ضميرك.

فعلت هذا لأني أردت أن أنتقم، وأردت أن أسخر من معتقداتكم البالية، وتظاهركم بقوة لا تملكونها..أنتم في الحقيقة ضعفاء جدًا..مجتمع تنخر نفوس أفراده كل عقد النقص والضعف..هذه هي الحكاية كلها.

ثمة حماقات تجرنا إليها كتابة القصص والروايات؛ أن ترى العالم بعين روائي أو قاص يجعلك تقدم على فعل أشياء مجنونة، وربما التعرف على أشخاص خطرين؛ فقط لأنهم يصلحون كشخصيات لقصتك أو روايتك..سيكون لزامًا عليك أن تبرر الكثير من التصرفات التي لا يمكن تبريرها للآخرين بأنك روائي، لأنهم لن يفهموا ذلك..أي غربة تلك؟ أي شقاء يتلبسك؟! وسيتحتم عليك في أوقات أخرى أن تقاوم بعض الرغبات التي تنتابك، كما يقاوم المدمن رغبته في المادة المدمنة، لأنها تتجاوز ما هو مسموح به..وتتعدى الحد الأدنى للحفاظ على رأي الناس فيك..هذا إذا كنت تهتم برأيهم..ونظرتهم إليك..الناس الذين ربما لا يؤمنون بأهمية ما تفعله لأجلهم، ويعتبرون مهنتك مضيعة للوقت، ونتاجها عبث لا طائل من ورائه..الناس الذين لم يعرفوا بعد والله وحده يعلم متى سيعرفون أنك تكتب عنهم هم ولأجلهم هم..أنك تعاني وتتكبد عناء مهنتك

وعناء نظرتهم إليك، لأنك تحبهم، ولأنك تنشد تغيير واقعهم، ولأنك تتمنى لهم غدًا أفضل، ولأنهم لا يصدقون كل هذا وأنت تتمنى أن يصدقوه يوما تستمر فيه متجاهلاً عدم تعاطفهم..أي قديس أو نبي أنت! لستُ إلا مجرد روائي غاضب.. لستُ إلا مجرد حاقدة أو متمردة فلنقل ذلك على كل هذا الظلم الذي لا يوجد فيه منطق، لست إلا قديس أنتم لا تعترفون به أو نبي أنتم به لا تؤمنون ..هل غاليت؟ وماذا يهمني من اعتقادكم في كلماتي؟

لستم إلا حمقى تقرؤون الشعر بنصف روح إن قرأتم، ولا تفهمون المجاز، وتقرؤون الروايات بروح مزيفة، شعلة تضيء عتمة عقولكم ووجدانكم سرعان ما تنطفئ جذوتها..تقرؤون لتتسلوا..وبعد ذلك تنسون..وبعد ذلك ستجلسون وتلعنون من قرأتم له! هل تؤمنون بما تقرؤون؟! بل هل تفقهون شيئًا منه؟! والتمع في عيونهما دمع واقف، يأبى أن يغادر مكمنه و يقاوم بعنف، سرعان ما ترقرق وابتلت الجفون بما لا طاقة لهم بحبسه..ثم باغتتهم نوبة ضحك مفاجئة اعتقدا على إثرها أنهما مجنونان.

«للأسف

مشكلتك ملهاش حل

جنونك عاقل جدًا

بس عقل العاقلين

من حواليك مختل»

خالد كساب

وفي غمرة انفعالهما بما تحدثا عنه؛ تفجرت رغبتهما في الكتابة، وعلى ورقة واحدة تكاثفت الكلمات وتداخلت الأصوات التي خطت بقلم واحد..كان مساءً شتويًا غريبًا قد بدأ يلوح في الأفق، والشمس تميل للغروب مستحية ولنقل مختفية وراء الغيوم التي تناثرت منها قطرات مطر صغيرة ومتقطعة لا تروي عطش زرع..وعلى المقعد الخشبي كانا ينتظران..كل منهما يجلس في انتظار شيء ما..شيء كأنه لن يأتي أبدًا أو لا شيء على الإطلاق!

كتابة القصص تورطني، لأنَّها تذكرني بأنِّي إنسان قبل أي شيء آخر وأنَّ كل البشر إخوتي في الإنسانية. وتباعًا سوف تظهر المشكلات..قلب طيب، حس مرهف، متعاطف مع الآخرين، مجنون، هه وماذا بعد؟! ماذا سيتبقى من شخصي القديم الذي لم يكن يكتب القصص؟! ماذا سيتبقى من ذاك الشخص العادي، المألوف والواقعي، بعد ظهور هذا الشخص الغريب والخليط بين المثالية والواقعية معًا، في حياته؟!

هذيان قاص قبل النوم..

تداخل أصوات شخصيتين رجل وامرأة مع صوت الراوي «أناي الثانية» ثم صوتي أنا !

لماذا أخشى أو أتردد؟ لماذا أتوقف عن الكتابة؟ أكتب بالطريقة التي تحلو لي..أفعل ما أنا مؤمن به..أبدع على طريقتي ولا يهمني رأي النقاد ولا يعنيني من سيفهم ما أرمي إليه ومن لن يفهم.

ثم نحّى القلم جانبًا، وأغمض عينيه دون أن ينتبه لقطرات الحبر التي تساقطت بعد ذلك فوق فراشه القوس قزحي. كانت ليلة لم نعرف نعتها، ولم يعرف أحد أيضًا ماذا رأى في منامه إلا أنَّ كل الذين ناموا وهم يكتبون ناموا ممسوسين بحروفهم.

وجع

كنت صغيرة يوم كان العرب مجتمعين على قضية واحدة اسمها فلسطين، واليوم تفرقوا وتشرذموا وتفتتوا، وأصبح لكل قطر عربي قضاياه الداخلية التي تشغل شعبه عمن سواه من الشعوب والأحوال العربية. كنا بالأمس مجتمعين، وكنت أحسبنا مع ذلك ضعفاء، واليوم أتمنى عودة الأمس فيا ليتني مت قبل هذا أو كنت نسيًا منسيًا..يا ليتني كنت ترابا !

في ظلام الليل
محبط أنا وحزين
كعيون فتاة اسمها فلسطين
تنتظر فجرًا..
وحدي في ليلة طويلة
لا أفعل شيئًا
لكن قلبي يحترق كشيء
يتمنى يوما أن يكون شمعة
تسرع في بزوغ فجرها

سارة كرم

انتظار

«وجهكِ الجميل يمنحني الحياة، إني أنظر إلى وجهكِ فأعيش ثم أدير وجهي عنه فأشعر بالموت! ماذا تطلبين مني؟ اطلبي نجوم السماء، القمر، الشمس، حياتي فأنا مدين لك بها، كما تشائين، لكن إياكِ وطلب المستحيل». فرمقته بنظرة حادة منكسرة ورأيتها وهي تزيح برقة شديدة خصلة صغيرة من شعرها عن عينيها، وتحرك إنسان عينها اليمنى حتى يختلط مع الدمعة فيمنع تدحرجها أو يطغى على صورتها، ويأخذ الحيز الأكبر منها إذا ما هي نزلت داخل العين قريبا من الجفن في حدود نصف سنتيمتر تقريبًا من عينها الواسعة، وتَحرك إنسان عين العين اليسرى أيضًا بشكل لا إرادي عندما تحرك إنسان عين العين اليمنى - لا أحد في العالم يستطيع تحريك إنسان عين واحدة دون أن يتحرك الآخر إلا بصعوبة بالغة، وما حاجته إلى ذلك؟! ولونهما أسود مشرب برمادية.. ثم تفعل بشفتيها نصف عبسة تتكلف بعدها ابتسامة فاترة .

أما هو..فقد تاهت نظراته وهو يحدق في الفراغ المجهول ويدور في خلده تساؤل حيره: ما هو الحد الفاصل بين المعقول واللامعقول؟ أحيانًا تبدو كل الأشياء وكأنما قد اختلطت ببعضها في خلاط كهربائي وتكون الغيوم ملبدة في سماء شديدة الصفاء! وفي لمحة سريعة مرت داخل عين الماضي، ألمح ليلة كنت أمشيها مع صديق عزيز، متلكئًا كعادتي، متبخترًا في مشيتي، حتى وصلت فأخبرتني بأنها...آه وفرحت كثيرًا حتى كدت أطير من الفرحة واستعرت جناحي جبريل ثم استغفرت الله و....؟!

أنهى تساؤله الطويل وعاد ليحدق في الفراغ المجهول، يحدق في اللاشيء بعمق شديد كأن نظراته تلك لم تكن تخرج من عينيه فقط، بل من وجهه الأبيض أيضًا، وشفتيه السليمتين اللتين لم يوجد بهما خط تشققي واحد، وأنفه متوسطة

الحجم، وشعر رأسه الأسود، وخرجت نظراته أيضا من بعض الشعيرات الصغيرة في ذقنه..

قال لها يقصد المستحيل: لأنه يستعصي علي تحقيقه، وليس هذا عيبًا في شخصيتي ولا تقصيرًا مني ولا يقدح في رجولتي ولا انتفاء لشهامتي، ولو كان ذنبًا فليس هذا ذنبي وحدي، إن أي رجل غيري، أي رجل إذا كان مكاني؛ فلن يستطيع أن يعبر بزوجته الحامل كبيرة البطن التي تحمل في جوفها طفلاً وجنينًا جديدًا، سيأتي للعالم ليتعذب ثم يموت من خلال حاجز عنصري إلا لو سمح لنا العنصريون بذلك، أو أننا سننفذ من الحائط؟!

- أرجوك..حاول أن تعبر هذا الحاجز اللعين، لا بد أن تحاول، ليس من أجلي، لكن لأجل ابنك!

- لا تحلمي كثيرًا، فالصور دائمًا باهتة في الأحلام!

تغير لون وجهها إلى الأصفر وتدريجيًا بدأ جسدها كله يشحب..يشحب، كأن الدم ينفصل عن عروقها!

كنت واقفة على أمل أن أعبر..كانت الساعة قد بلغت تمام الثانية عشرة ظهرًا، بعض الناس كانوا ينتظرون منذ ثلاث ساعات وبعضهم منذ الفجر، وتمنيت أن ألحق بالحصة الأخيرة، لم أشأ أن أرجع للمنزل بخفي حنين..دون حصة دراسية واحدة!

وقف الجمع من الناس عند الحاجز منتظرين أن يعبروا لسببٍ ما أو لآخر.. وقفوا جميعًا متذمرين، معكري الصفو، سيئي المزاج، يتأففون بين نصف الدقيقة ونصفها الآخر..وكانت هناك بعض التنهيدات الحارة التي تخرج من أفواههم ومن أعماق قلوبهم! كان يقف إلى جانبي شخص تنبعث من فمه رائحة كريهة كلما تنهد..وإلى الجانب الآخر مني وقفت سيدة سمينة، سمراء البشرة، تقبض

وجع

بيدها الكبيرة على يد صغيرة غضة، كان طفلها يمسك بيده الأخرى قطعة من البسكويت، تصبب العرق فوق وجهها فرفعت يدها ملوحة تلويحة قصيرة غير مقصودة -فعلت ذلك بين الحين والحين- لتمررها فوق جبينها وسائر أنحاء وجهها الكبير نسبيًا، السائح في بعضه وكأنه بلا ملامح!

أما الطلاب الصابرون مثلي، الحالمون بحضور الحصة الأخيرة فقد كانوا كثيرين جدًا..وقفوا جميعًا صابرين أكثر من غيرهم وأكثر مما يمكن للإنسان أن يحتمله ولسان حالهم يقول: اطلبوا العلم ولو في الصين..اطلبوا العلم ولو تطلب الأمر أن تعبروا الحاجز اللعين!

أسقط الطفل قطعة البسكويت من يده؛ فأنبته أمه، لكنها أنبته أكثر عندما هم بالتقاطها من فوق الأرض وكان قد التقطها بالفعل، فجذبتها من يده بقوة وقذفت بها بعيدًا..وتباينت ردود أفعال الناس:

صاح الرجل ذو الفم كريه الرائحة: حرام «خيتو» حرام !

فشد على عضده شيخ مسن قائلاً: نعمة الله على الأرض..أستغفر الله العظيم.

فاعترضت امرأة: «شو مالكم» يا جماعة..الله يهديكم.. الست ما «غلطت»، «بدها» تحمي ابنها من المرض!

قال شاب حمساوي: قال رسول الله صلى الله..

فقاطعه فتحاوي: اللهم صلي عليك يانبي، «خلاص عمي»، «فضيناها» سيرة!

وبدا لي أن الجميع يحاولون محاولة جدية للهذيان، ويبذلون لتحقيقها جهدًا ملموسًا، وينخرطون في الهراء؛ إما للتسلية والترويح عن أنفسهم أثناء وقت الانتظار الطويل، وإما ليبعدوا تفكيرهم عن رغبتهم في اختراق الحاجز اللعين، ويتفادوا بذلك الدخول في مناوشات مع جنود الاحتلال وهم عزل لا يحملون السلاح فرب بسكوتة واحدة تحمي من مجزرة مؤكدة! قالوها قديمًا في الأمثال

عندما كانوا يقفون على الحواجز..سخرت من الأمر.

وبدأت المرأة الحامل في الولادة!

فحملها زوجها ومعه رجل مفتول بعيدًا قليلاً ووضعاها على جنب كما توضع قطع الأثاث! وسرعان ما استعار الزوج زجاجات المياه المعدنية وغير المعدنية التي كانت مع الواقفين..وتقدمت سيدة خبيرة لتعرض خدماتها..عندئذٍ قال الحمساوي: «المي مش ساخنة».

فقاطعه الفتحاوي: «لا عمي ساخنة من الشمس»! وبدأت عملية الولادة بالفعل، شكل النسوة حلقة مستديرة حول المرأة المسكينة، وخلعت فتاة متطوعة سترتها فتم لف المولود وتدفئته بسلام!

أثناء الوقت الذي استغرقته عملية الولادة..كان الطفل الصغير صاحب البسكوتة قد أصيب بضربة شمس..وأخرج جندي إسرائيلي سيجارًا من جيبه.. أشعل السيجار وشرع في التدخين!

اشتدت حرارة الشمس أكثر، وبعد حوالي ساعة اعتقد الجميع بأن الطفل المذكور قد لقي حتفه فعلاً، وأن ذلك قد حدث منذ ساعة على الأقل!

قفلت راجعة معهما في الطريق بعد أن أقنعني هو بشق الأنفس بأن حصتي الأخيرة قد ضاعت مني وفاتتني مذ وقت طويل، ولكم أن تتصوروا قلة ذوقي ولامبالاتي المفرطة في المواقف الصعبة، وعدم رغبتي في تحمل أية مسئولية خارجة عن نطاق دراستي؛ فأنا لم أعرض على زوجها خدماتي، لم أطلب إليه أن يسمح لي بأن أصبح عكازًا خشبيًا؛ لا لأنه لا يمكن أن يوجد عكاز في مثل هذه الدرجة من النحافة، ولكن لأني أكره ذلك..نعم..أكره أن أتحول إلى عصا خشبية أو عصا من أي نوع آخر! ورغم تأكدي من قصده بعودتي معهما في الطريق أن أفعل ذلك إلا أني تابعت خطواتي في ثبات عادي..لم أتعمد أن أسرع، ولكن أيضًا لم أتعمد أن أبطىء ليسيرا معي على مهلهما..لم أنبس ببنت شفة ولم أعِرْ قسمات وجهه

وجع

الغاضبة أيّ اهتمام..لم أعرض أي خدمة على الإطلاق ولم أفعل حتى..قال لي حينما اشتد غيظه مني: ساعديني من فضلك..اتركيها تتكئ عليكِ! قالها وهو يجز على أسنانه محاولاً محاولة غير ناجحة في إخفاء غضبه!

ولم أستطع الرفض..فتلك المرأة الحاملُ التي وضعت طفلها عند الحاجز أوعليه أو فوقه-لا فرق فكلها حروف جر- هي خالتي! ولا تستغربوا كيف أني كنت مشغولة جدًا وقتها بفكرة ذهابي إلى المدرسة..فمالي وهذه الأشياء؟! لم أقف هناك لأجلها..وقفت فقط لأجل مدرستي..لم أشكل حلقة مع من شكلنَ..فما شأني وقد انتهيت لتوي من الصف السادس والتحقت بالصف السابع بمسألة ولادة؟ وماذا يعنيني فيما إذا كان الماء ساخنًا أم لا؟ وما إذا كانت الشمس قد قامت بدورها المرجو منها المطلوب معه؟ فلست عالمة بالطاقة الشمسية – وإن كانت تأثيراتها قد تبدت واضحة جلية هذه الظهيرة- ربما لو كنت جامعية أو يزيد لما كنتم قد التمستم لي العذر!

قالت لها: مبروك ياوداد..بالرفاه والبنين إن شاء الله.

فخالتي الكبرى وهيبة لا تحسن اختيار التهنئة المناسبة في الموقف الملائم لها! إنها دائمًا ما تسقط التهاني دون شعور منها على نفسها ودائمًا ما تقول: مبروك..ثم تتبعها بجملة الرفاه والبنين أو لا تتبعها، ويستوي ذلك عندها ما إذا كانت المناسبة المقصودة زواجًا أو ولادة أو حتى عيد ميلاد! خالتي وهيبة عانس ورغم رقتها إلا أن عنوستها قد أكسبت شخصيتها بعض الخصائص المعقدة و...فلتات اللسان الغريبة.

الشهادة

كنتُ هناك حين اهتزت مشاعر سكان الحي في لحظة واحدة .

- خافوا كلهم.

وطفقت الجرافة تقترب من منزلنا شيئًا فشيئًا ونحن-جميعا-واقفون في الشرفة..جامدون كالأصنام..فاغرون أفواهنا وتحملق عيوننا بشدة إلى الأسفل! نقلت نظري بين الأم المنهارة في البكاء فوق جثة طفلها الرضيع، والأم التي تفتش بين الأنقاض عن شيء ما فترمى هذا الحجر هنا، وترفع ذاك الحجر بصعوبة وترميه هناك، ولست أستطيع أن أخمن عن ماذا كانت تفتش.

نزل جندي من الجرافة وقال: سيكون بإمكانكم أن تخلوا المنزل في خمس دقائق و سيكون من الأفضل لو أخليتموه في ثلاث فقط!

و ظهرت علامات الرعب و الترقب على وجه أمي كأنها تنتظر موتًا أو موتًا محققًا!

وأشارت إليّ بنظرات عينيها وهي تقول لأبي: أين شهادته؟!

فردها مؤنبًا: وهل هذا ما يهمك الآن؟!

فقالت بتوترها المعهود وعصبيتها، بكل رغبتها النهمة والمؤكدة في الحصول على الشهادة: إنها إثبات نجاحه هذا العام و هي التي ستؤهله للالتحاق بالمرحلة المتوسطة.

ثم تنهدت برعب وهي تقول: أين وضعتها؟

ورأى أبي الذعر في عينيها، إنه كأب يقدر خوف أمٍّ على مستقبل طفلها المحبوب و الأثير لديها فرق لها وقال: لا أتذكر..لا أتذكر بالضبط أين وضعتها.

وجع

ففزعت أمي أكثر من ذي قبل قائلة: لا تتذكر..لا تتذكر..لكنك يجب أن تتذكر الآن..مستقبل الولد سيضيع!

- أنتِ تضيعين الوقت..حياتنا جميعا في خطر!

فزاد اندهاشها واضطرابها وقالت أمي راجية: الشهادة..أرجوك..حاول أن تتذكر أين وضعتها؟!

فأجابها وقد ازداد حنقه وعلا صوته: أنتِ تضيعين الوقت، الوقت الثمين.. الوقت الذي يفصل بين الحياة و الموت..في البحث عن شهادة ابتدائية ثم ما قيمة المستقبل للإنسان إذا كان هذا المستقبل بدون حياة!

وتصيحين في وجهي: مستقبل الولد سيضيع..وأنا أقول لكِ: أن الولد سيموت!

وقد خفق قلبه و اضطربت نظراته في هذه الجملة الأخيرة.

لم يكن أبي أحمقًا للدرجة التي تجعله يتجادل مع أمي متماديًا في تضييع الوقت والشجار حول مسألة جد تافهة كهذه، هذا كذب؛ لقد كانا يتشاجران دائمًا، في هذا اليوم تحديدًا تشاجرا أكثر من عشر مرات، كنت أريد توديع غرفتي، دفتري كان مفتوحًا، وكان الأحرى به والأجدر بحكمته وعقلانيته التي عرفناها عنه نحن-أبناءه جميعا- الأحياء منهم و الأموات، أخي حسن استشهد منذ عامين، أخذوا سعاد للمعتقل منذ خمسة، سعاد كانت طويلة، لم يكن حسن قصيرًا جدًا، أحاول تذكر ملامحه، أم حسين جارة السوء، مسكينة، لم تجد ما تبحث عنه، تولول في موقعها، جاء الـ..، قطتي، غدًا سوف أبحث عن خالتي سمية وأذهب إليها، أنا أحب أبي، الدم، الجندي القبيح، هذه حقيبة سارة طفلة الروضة، عود نعنع، اذهبوا إلى الجحيم يا أولاد الكلب! سوف أقتله، أن يأخذنا جميعًا إلى الخارج ثم يعود ليقنع أمي أو يرغمها! التفت أبي أخيرًا إلى الخطر الداهم و المؤلم الذي يحدق بنا جميعًا لو لم يتوقف هو و أمي عن الجدال، وإن كان يعرفه منذ البداية ويشعره، لكن أمي لم تعد إلى صوابها.

قالت له: سوف يذهب ابني إلى الجامعة في أمريكا، سوف أرسله إلى خاله هناك!

- عليه العوض في عقلك يا امرأة!
- عندما يكبر.

ومضى من الفترة المحددة للإخلاء ثلاث دقائق بالتمام والكمال فقد كنت أنظر إلى ساعة الحائط كلما مرت عشر ثوانٍ تقريبًا ثم أعود ببصري إلى أمي و أبي و أختي ليالي من جديد.

صاح أبي كالمجنون: اخرجي يا ليالي من هنا..هيا أسرعي يا بنت.

- لا، لن أترك أمي تبحث وحدها..أقصد..أمي لن تموت سنخرج كلنا سويا!

واغرورقت عيناها بالدموع وأمي تلقي بمحتويات الخزانة والأدراج بعنف، تقلب يديها في كل الأوراق والأشياء الصغيرة الكثيرة المدفوسة، لقد دفستها بنفسي! إنني نادم على كل لحظة عبثت فيها بأغراض غرفتي وكركبتها فوق بعضها، لماذا لم ألتقط صورة للغرفة؟ عندما أصبح مسنًا هل سأتذكر شكلها؟ تكون جميلة عندما تكون منظمة..لو كنت رتبت أغراضي ربما كانت وجدتها.

- اخرجي يا بنت..اخرجي و لا تضيعي الوقت.

لم تحرك شفتيها وحدقت فيه ساكنة مضطربة. ولما وجد أبي أنه لا أمل ولا فائدة ترجى من إقناعها بالخروج دون أمها حول نظره عنها ونظر إلي بحنان وحدة، لكن نظرته تحولت إلى غضب عنيف عندما نقل نظره بسرعة إلى ساعة الحائط، وزمجر أبي زمجرة لم يزمجرها في حياته من قبل..وصرخ بي حتى ذعرني، وخرجت مفزوعًا..

- اركض..اركض يا ولد.

كان منزلنا من ذلك النوع الهش سهل الهدم. انتهى كل شيء..وشعرت بالذنب..وخيل إليّ أنني كنت السبب فيما حصل..ولم أصدق..لم أصدق وأنا

أبكي حينما ترامت إلى طرفي شفتي ضحكة هستيرية مباغتة..أن الأمر برمته لا يعدو كونه موتًا..بل موتًا بشعًا ومحققًا في سبيل..

لم أصدق..أن السبب في موت أبى وأمي وأختي هي شهادة..مجرد ورقة حقيرة حصلت عليها من مدرستي..قال طارق: أنت لست مذنبًا.

وابتهج الصغير بهجة المبتئس حين تلم به لمحة نجاة:

- خالتي سمية
- تعال يا حبيبي..أين أمك؟ يا ويلي يا ويلي..من أنتِ؟
- مراسلة قناة صاد.
- تعال أنت أيضا يا طارق..ما الذي تكتبه؟
- لا شيء.

وابتعدت خطواتهم..وتواروا جميعا غائبين عن الأنظار.

❖❖❖

مهدئات

أنا المحقق س.أ من سجن «ر» هؤلاء المجانين يعطون الأوامر بشكل هستيري! طلبوا مني أن أتخلص منها فورًا ومباشرة؛ لم يعد لها فائدة، لم تعد تلزمنا في شيء غير أن يأتي أقاربها إلى هنا ليزعجونا بالسؤال عنها والرغبة في زيارتها، إنها عنيدة وصعبة، امرأة صلبة، عندما نضعها في الانفرادي يضربون عن الطعام ويثيرون دعاية سخيفة ضدنا، ولذلك طلبوا أن أتخلص منها بالنيابة عنهم. لكن هذا القرار التعسفي لم يرق لي، كنت أود أن أعترض، لكن حظي الضئيل من الشجاعة لم يحالفني في معارضة رؤسائي ولم تواتني الحكمة أو اللباقة؛ بحثت عن الدرر فلم أجدها! في الحقيقة، لم أجد التعبيرات المناسبة التي من الممكن أن أعبر بها عن اعتراضي وهي في الوقت نفسه تحقق نوعًا من التوازن وتضمن لي الاحتفاظ بعلاقة جيدة مع رؤسائي ومرور الموقف بسلام، من خبرتي في الحياة أعرف أن العلاقات كلها قد تنهدم في لحظة واحدة فقط من موقف قد يستغرق خمس عشرة دقيقة كفيلة بهدم ما بناه المرء خلال سنوات طويلة من علاقات اجتماعية وعلاقات عمل!

ارتبكت أمامهم، خارت قواي وتثبطت عزيمتي، شُلت إرادتي في الاعتراض، وجدت نفسي أقول لهم: عُلم وسوف ينفذ! ذهبت إليها بخطىً هستيرية، أحضرتها إلى مكتبي..شرعت في توجيه الأسئلة لها، لكنها رفضت التجاوب معي، أظهرت لها غضبي، لوحت لها بما يمكن أن أفعله، كنت في الحقيقة غاضبًا منهم ومن نفسي أيضًا، لكني تظاهرت بالغضب منها، ارتعشت، وداهمني إحساس غريب..شعرت بدقات قلبها تتسارع بشدة وتأن وترن في طبلة أذني! جن جنوني..عذبتها، لكني على أية حال لم أكن أنوي أبدًا قتلها، فعلت ذلك بكل الوسائل، كنت قذرًا ومجرمًا حقيقيًا، لكنني عبد مأمور على أية حال، رغم

وجع

أنهم لم يطلبوا مني أن أعذبها طلبوا فقط أن أقتلها وتركوا لي حرية التنفيذ! إنها مزعجة وتسبب كثيرًا من الفوضى هنا، لأنها تحرض زميلاتها ضدنا، تعتقد أنها زعيمة قبيلة و تجد في نفسها القدرات المناسبة للقيام بذلك؛ إنَّ عندها وصلابتها يسببان لنا نوعًا من الغيظ الغريب؛ غيظًا كافيًا ليجعل رغبة التخلص التام منها تحتدم في صدور رؤسائي الشرفاء!

عندما جن جنوني وفي اللحظة التي سبقت شروعي في تعذيبها مباشرة، كان قد خطر لي خاطر عجيب فجأة! لم يكن لدي متسع من الوقت فزميلي الذي يليني في الفترة المسائية سوف يستلم مني العمل بعد ساعة، ولن أعرف ما سوف يحل بها بعد ذلك؛ إذ ربما تطوع هو بنفسه لإنجاز المهمة؛ لقد كان شريرًا دائمًا وقاسي القلب!

لم تكن تهمني في شيء أو تهمني حياتها؛ مجرد متهمة، أسيرة في هذا السجن وأنا أتولى وأباشر مهمة التحقيق معها، لكني محقق ولست قاتلاً؛ وجدت نفسي بتلقائية وببساطة شديدة أشرع في تعذيبها، لأنَّ الهاجس الغريب، عفوا..الخاطر الذي كان قد خطر لي فجأة هو أن أعذبها حتى تدخل في غيبوبة..وبذلك يرتاحون من الغيظ الذي تسببه لهم..وربما تجاهلوا عندئذٍ أن ينشغلوا بأمر قتلها أو استتبت بداخلهم مؤقتًا رغبة قتلها والقضاء عليها بشكل نهائي..وأن تُدخل شخصًا في غيبوبة خيرًا من أن تقتله على أية حال! خيرًا سأفعل إذن؛ أدخلها في غيبوبة فأبقي على حياة خاملة لها وفي الوقت ذاته أريحها من ويلات هذا السجن، هكذا أضرب عصفورين بحجر واحد؛ تخيلت نفسي ذكيًا وظريفًا، لكني كنت وقحًا وشريرًا بطبيعة الموقف..هكذا اعتقدت، لكنها كانت ضعيفة؛ أضعف مما كنت أتوقع، لقد ماتت مني تمامًا ولفظت أنفاسها الأخيرة، كانت جميلة، صغيرة، عنيدة، لكنها قُتلت، وأنا هو قاتلها وهذا هو كل شيء!

- السيد المحترم ستيفن محقق سجن «ر»، تقول كنت تشعر بالبساطة؟! عذبتها وببساطة شديدة؟! هذا ليس صحيحًا، كنت تتألم أليس كذلك؟

- لا أعرف يا دكتور إنها تطاردني الآن في الكوابيس.

- منفعلاً: إنك..

- مقاطعًا له: اسمع يا دكتور ريتشارد..أنا مريض..لا تقحم توجهك اليساري والمتعاطف مع الفلسطينيين في الموضوع..لا تؤنبني..أرجوك أريد حلا.. دواء..هراء..هيكلاً من السماء..أي شيء يخلصني من من تلك الكوابيس اللعينة.

- متهالكًا أعصابه و متنهدًا ببطء: (يمسك بقلمه) حسنًا سوف أكتب لك علاجا..أنت بحاجة إلى بعض المهدئات والمنومات..(منتهيًا من الكتابة) أراك في الأسبوع القادم في نفس الموعد..(يناوله الروشتة) إذا طرأ جديد فعليك بالاتصال بي..أنت مثل شخص إسرائيل يا ستيفن؛ يمكنك أن تمضي عقودًا بأكملها في كلام فارغ عن سلام لا يأتي أبدًا، وتتناول حبوب الهدن الصغيرة المتبوعة دائمًا بجرائم حرب، ضميرك يطلب إجازة من جبرية جماعية تعتقد أنه ليس بإمكانك التخلص منها، لكنه لا يبالي بأن يستيقظ.. أسماؤنا ليست عبرية؛ أسماؤنا كأسماء من يساندون شقاءنا وإشقائنا للآخرين؛ أسماؤنا كضمير العالم، هم نحن ونحن هم؛ من يسكت عن ذلك فإنه سوف يحل فيه ويتوحد معه!

- وداعًا

- هه..وداعًا

وأطرق ، وطرق طرقتين برأس قلمه فوق سطح المكتب.

الكلمات

إسرائيل

القانون

المال

وجع

..........عندما أنهي آخر سطر من هذه الكلمات لن أكون موجودًا..

....

....

....

....

....

....

.......هذه هي الحياة؛ تعتقد أنك بطل وأنك ستضرب عن الخدمة، لكنك تجد نفسك مضطرًا في النهاية إلى الإضراب عن الحياة

•

عواطف

تذكر وهو ينظر إلى الجريدة قصيدة قرأها ذات يوم دون أن يتذكر شاعرها كانت تقول:

من المهم أن يكون المرء عمليًا

لأنّ العواطف قد تضر بالصحة!

في الصباح

تناول طعامك بسرعة

لأنّ ليس لديك وقت

اذهب إلى عملك

اعمل ولا تتوقف أبدًا

اقتل نفسك في العمل كل يوم

وفي المساء

اجلس على كرسي مريح

وأحصِ ما جمعت من نقود

ليس مهمًا بعد ذلك

أن تشاهد فيلمًا كوميديا لتضحك

أو تراجيديا لتبكي

هل لديك دموع مثل بقية الناس؟!

إذا كنت متزوجًا

فليس مهمًا أن تقبل صغارك قبل النوم

وإذا كنت أعزبًا

فليس مهمًا أن تتزوج

لكن ضع في اعتبارك

أن الجميع سيتمنون أن تذهب إلى الجحيم

بفظاظتك هذه!

وفكر أن العواطف خطيرة جدًا ثم ثرثر في داخل عقله: لقد عرف الصهاينة جيدًا خطورة الأفكار والعواطف ثم وظفوها في صورة فعل؛ إسرائيل قامت أساسًا على العواطف، على اللعب بمشاعر ملايين من اليهود المغفلين في العالم، على كذب الكذبة ثم تصديقها، لأن القلب يريد أن يصدق ولأنها فكرة تبدو مثيرة!

يطوي أطراف جريدته كأنه يلملم خيبته حزينًا بعودته من وقفة مضنية لساعات دون أن يتمكن من الذهاب لعمله، بكلتا يديه أمسكها، عقفها وراء ظهره ومضى قبل أن يسأل نفسه بحسرة: هل تنجح العواطف يومًا في توحيد العرب وفي تحرير بلاده؟

❖❖❖

ذكريات تسعينية

أنا شيرين حسين، مع أنهم سجلوني في سجل المواليد على أني قد ولدت في يوم ١ من شهر أكتوبر ١٩٩٠ لأسباب ستتعلق بدخولي المدرسة فيما بعد إلا أني في الحقيقة قد ولدت في يوم ١٥.

أحب كل شيء في عالم التسعينات..أحب جيلنا.

لا أدري لماذا من بعد سنة ٢٠٠٠ وأنت طالع أصبحت أعتقد أن التسعينات كانت أجمل الأيام.

ربما هو الحنين للماضي..التسعينات دائمًا هي أهم فترة من الزمن سوف أظل أعتز بها وأفضلها عن كل السنوات التالية، لماذا؟ لا أعرف!

ربما أعرف ولا أستطيع أن أعبر..ربما لأن العولمة، وفوضى المعلومات، وطفرة التكنولوجيا، والتواصل الاجتماعي الافتراضي والمحمولي؛ ظواهر كثيرة لا أحب بعض جوانبها قد ازدهرت بعد عام ٢٠٠٠

ربما لأن حياتنا تفقد رومانسيتها، ودفئها الاجتماعي، وقيمها الإنسانية الرقيقة كلما مرت السنين..الآلة والتكنولوجيا وطغيان المادة تدمر جوهر الروح الإنساني فينا تدريجيًا، وربما أسرع مما نتوقع، شيئًا فشيئًا تحولنا «لمسوخ».

ربما هي شهوة الانتماء للجيل والتعصب له! سنة من سنن وجودنا الاجتماعي، الأجيال التالية لا تعجبني في بعض نواحيها..أشعر بأنهم مختلفون عنا..لكنهم يعيشون زمنهم..هذا طبيعي، نحن أيضًا لم نعجب من كانوا قبلنا.

حقبة التسعينات هي الزمن الجميل بالنسبة لي، لأنها أول وأقدم زمن عشته. مَنْ يكبرون عني سيعتبرون زمنهم الجميل في السبعينات أو الستينات أو..هذه هي الحياة..دنيا!

كانت أيام التسعينات أجمل من أيام الألفين، وأيام الألفين أجمل من أيام ٢٠١٠، وسوف تكون أيام ٢٠١٠ أجمل من أيام ٢٠٢٠، وماذا بعد أن تحولت لقاءات الأقارب في الأعياد إلى تهنئة إس إم إس؟ ماذا تبقى من الأزمان الوردية الدافئة، وماذا تبقى من علاقاتنا الاجتماعية، وعلاقاتنا العاطفية؟ لقد حق اليوم لكلمة جيران أن تدخل إلى متحف التاريخ؛ هذه الأيام هل يعرف أحد جاره؟ وسوف تليها كلمة أقارب سوف يأتي يوم تختفي فيه كلمة أسرة..إننا نتلاشى ونتناقص تدريجيًا؛ يومًا ما لن يصبح هناك أب أو أم ولا أخ ولا أخت، ماذا سيتبقى لنا، وهل سنبقى نحن، هل تختفي الأنا أخيرًا هل سأختفي أنا وأنت؟! قلبي يؤلمني، وأتمنى أن أموت قبل أيام ٢٠٣٠

سوف تستهلك جزءًا كبيرًا من طفولتها في مشاهدة نشرات الأخبار ومتابعة قمم عربية؛ قمم ما كان أشبهها بالخوازيق والحفر والأفخاخ منها إلى أي شكل «قمي»..تتزاحم في مخيلتها صور حكام عرب سابقين؛ القذافي المجنون، مبارك الوغد، عرفات الذي طالما اعتبرته خانعًا ولا تعرف كيف اغتالته إسرائيل بالسم رغم خنوعه، ربما كانت تحتاج إلى من هو أخنع منه..تلوم نفسها قائلة: ربما أنتِ جاهلة ولا تعرفين التاريخ النضالي للرجل..تترحم عليه في سرها..ما دامت

وجع

إسرائيل قد قتلته فلا شك كان مناضلاً وتلعن السادات؛ ما دام الأصوليون قد قتلوه فلا شك كان عميلاً! شيوخهم لا يخطئون نظرتهم الثاقبة لأمور حساسة كهذه..حتى لو كان قد اتخذ قرار حرب أكتوبر..ربما خطط لها الموساد..تبتسم ببلاهة لهلوساتها الفظيعة جدًا..بعد النصر كانت سقطته شنيعة..لا..لن تسامحه أبدًا..تعبس..تلعن معاهدة «كامبديفد» الـ....التي ضيعت القضية، وأعطت لكيان غاصب كان على وشك الانهيار خلال عقد واحد تقريبًا، قبلة حياة لعقود، الله وحده يعلم إلى متى ستستمر..تنتحب على مشهد خراب العراق الذي قرأته للتوِ في رواية المترجم الخائن الآن في٢٠١٣..تتذكر أن المؤلف سوري «فتتشهنف» على حال سوريا..تعود لتولول على فلسطين ثم تنتبه لأنّها مصرية فتندب حظ المصريين منذ يناير ٢٠١١

تنتحل له الأعذار..ربما كان مخبولاً..هؤلاء الزعماء يصابون بالخبلِ في أواخر أيامهم..الغرور الذي يصيبهم إن لم يكن جنون العظمة يمنحهم ثقة مفرطة تجعلهم يأتون أفعالاً مجنونة على اعتبار أنها بقدرة قادر وبشكل خاص، لأنهم وحدهم مرتكبيها لا أحد غيرهم، سوف تتحول إلى أفعال رائعة ومبهرة لن يجانبها الصواب أو العقل أبدًا..يا حبيبي..يذهب إلى إسرائيل برجليه ويشارك بعضلات جسمه في احتضان الإسرائيليين ثم يبدأ سلسلة مفاوضات مخزية على حساب عروبة مصر والقضية الفلسطينية..أي جنون هذا ؟!

ونحن؟ جيل تعبان، جئنا في زمن العار والله العظيم..أيام مفاوضات تتناقص فيها قطعة الأرض الفلسطينية يومًا بعد يوم، أكثر من الذي قبله، على اعتبار طبعًا أن الأرض أساسًا إسرائيلية وأن الفلسطينيين الملاعين محتلين و دخلاء عليها، لكن الإسرائيليين بقلبهم الطيب والكبير سوف يتبرعون لهم بقطعة يقيمون

عليها دولة فلسطينية لهم! من أين لي بعقل يستوعب كل ما يجري للعرب منذ ولدت؟ لماذا جئت في هذا الزمن؟!

مع نهاية عام ١٩٩٩ واقتراب عام ٢٠٠٠ بشدة كان المنجمون الذين لا يتركون عامًا يمر دون أن يبشروا بنهاية العالم فيه قد بشروا بالنهاية الحاسمة الآتية لا محالة مع قدوم الألفية الجديدة وعندما خسرت تنبؤاتهم أجلوها لـ ٢٠٠١

في شهر سبتمبر من ذلك العام..تفكر: لماذا كنا مبتهجين إلى هذا الحد؟ جدتي المحافظة التي لم تعرف الرقص في حياتها انتصبت واقفة وحاولت الرقص بل جن جنون العائلة كلها فقاموا يتمايلون ويرقصون كأنهم في عرس..جدي الوقور الذي لم يشرب المنكر في حياته أقسم أن يحتسي زجاجة ويسكي، خبطت جدتي بيدها على صدرها، خمنت أنها كانت تفكر: لا ينقص إلا أن يحلف بالطلاق أن يتزوج عليّ غدًا ثم عادت لابتهاجها بحذر..كانوا يشعرون بأن ثمة شيء خارق قد حدث..شيء غير طبيعي..ربما لشدة غير طبيعيته كان يستوجب القيام ببعض الأشياء غير الطبيعية! خروج على المألوف..من كان يصدق؟! ولم نكن وحدنا.. تتذكر الصينيين الذين شرعوا في وصلة تصفيق طويلة عندما جاءهم الخبر أثناء جلسة برلمان..العالم كله كان يتشفى..كانت أنف أمريكا قد طالت وارتفعت أكثر مما ينبغي وكان يتعين كسرها لإعادتها إلى مستوى الارتفاع الطبيعي..لو أننا قد حررنا الأقصى هل كانت بهجتنا ستكون أكبر؟ ما الذي يجري؟ السياسة الأمريكية الحقيرة نجحت في جعل العرب يضعون أمريكا جنبًا إلى جنب مع إسرائيل..بعد ذلك سيتساءل الأمريكيون: لماذا يكرهوننا؟ وستبتدع إدارتهم أسطورة الحرب على الإرهاب.. سيزعمون أن في العراق أسلحة دمار شامل وسوف..لم ينته العالم، لكن بدأ عالم جديد.

وجع

رغم بخله الشديد، قرر زوج خالتي مريم شراء صندوقين من زجاجات الكولا لتوزيعها على الجيران بهذه المناسبة ثم أطفأنا الأنوار، ومضى كل إلى غايته، حينما كانت تراتيل جدي المؤمنة ودعواته بالرحمة لمن قضوا نحبهم تشق سكون الليل بعذوبة...

❖❖❖

لافتات

معبأ بالصمت، على واجهة قلبه كانت اللافتة المعلقة تقول:

«ممنوع الدخول لأصحاب القلوب الضعيفة وأصحاب القلوب الجذلة!»

في الداخل كانت لافتات أخرى كثيرة تسبح في الفضاء معلنة قدومها من كوكب الشجن:

(١)

«حزن»

ماذا تعرف عن الحزن؟

الحزن شيء بغيض مثل قطار شاحب

وسحابة ميتة

وذيل فأر مشاكس

طعمه مر مثل شاي الغياب

ولواؤه مرفوع كحاجب فقد!

كنت أفكر عندما أحزن

أن لا أجعل مظلتي فوق رأسي

وأن أمتطي سيف الذهاب

هناك في غياهب اليأس
حيث لا تسمع غير صوتك أنت
سوف تعيش حقًا
في مملكة من الوحدة والعمق
هناك بعيدًا جدًا
في زمن خارج حدود الفرح
سوف لن تكون متأكدًا من أي شيء
سوى أنك حزين

(٢)

«أغنية لشقاء بلا حدود»

تنقصنا الجرأة
ويسكننا الخوف
أوهامنا تعشش في عقولنا كشياطين موسوسة
قلوبنا مكسورة..وعيوننا جفت لكثرة الدمع
شفاهنا ترتجف بلا صوت
ها نحن بائسون ولا نستطيع عمل شيء

ها هي الشجون تأتي كقطة شرسة

وتحتضننا بعنف كما تحتضن سمكة!

ها هي الأيام تمر ولا يد لنا في مرورها

نقول آه ولا نعرف صنع «كيف»

والرجل الذي حلمت به

لم يأتِ يوما ولم يقل أحبك

في قلبي فراغ..ويدي باردة كثلج

(٣)

«بدون عنوان»

لا..لا تقل أن الصدمات المتتالية التي تصيبنا تجعلنا أقوى..إننا نتسمم ببطء! وكل ما في الأمر أننا نحاول التظاهر بصحة جيدة، وسوف تقضي علينا أحزاننا يومًا إن عاجلاً أم آجلاً، لكننا نماطل الحزن ونتظاهر بمقاومته عبثًا، نظن خطأً أنه من الممكن أن نخدع الحزن ونضحك عليه، نظن أنه غافل، لكنه لنا بالمرصاد، ويرقد كالأفعى في مكمنه ليحرس حياتنا بعناية ريثما تحين لسعته القاضية!

(٤)

«.............»

......أ...............ص...........ع...

ن ك ش ل

في الفضاء كانت حروفها تتلاشى!

.

ُ ِ

ّ

. ب

قرار تبنّي

تعتقد أن الأمومة هي الدافع الأول للزواج، وهي..من هي؟ لا تفكر في الزواج الآن، لكنها تفكر في الأمومة!

***

تهتم بأخيها الصغير، تعطف عليه نصف الوقت وتعنفه النصف الآخر..لظروفه الخاصة يسبب أحيانًا إزعاجًا مملاً؛ تفكر: الأطفال العاديون مزعجون أيضًا..والمشكلة أن الأخ يبقى أخا..لا يتحول الأخ بقدرة قادر إلى ابن..لا تتحول الأخت إلى أم.

***

اتَخذَتْ قرارًا بتبنيها.

***

رأيتُها مصادفة بشعرها المجعد الناعم..الأصفر الضارب إلى العسلي بمسحة من الأخضر العصفوري..وثوبها الذي يشبه ثوب فتاة يافعة، لكن بحجم أصغر يناسب..وترتني..لا أعرف كيف أصفها؟!

***

في الطريق المؤدي إلى العودة استوقفتني جالسة عند قاعدة عمود الإنارة بعينين حزينتين، متطلعتين بخفوت صاخب، يكاد الشوق إلى العطف يقفز منهما بلطف ومداراة- على الأرض المفروشة بالرمال، وصوتها الطفولي العذب الذي يشع براءة ومسكنة يخترق طبلة أذني كحلم: اديني حاجة والنبي..ربنا يخليكي..مش هتديني حاجة؟!

قبل أن تفارقها تأكدَتْ من أنها ستكون موجودة في نفس المكان.

***

فتشتُ عنها جيدا..انتظرتُها ولكن لم تأتِ!

الموعظة

التفوا حوله يظنونه الشيخ، أراد أن يقول لهم أنه الشخص الخطأ، لكنهم لم يعطوه فرصة، ازداد إلحاحهم وتوسلهم. اضطر للوقوف على المنبر وخطب خطبة قصيرة: دائمًا كانت لنا أخطاء، وحماقات غير مقصودة، إننا نستحق أن نستغفر الله كل يوم حتى لو قضينا نهارنا وليلنا متبتلين كافين أذانا عن الناس؛ ما الذي يدري الواحد منا لو أنه دهس نملة دون أن ينتبه كانت تستعد لحفل زفافها أو لوضع طفلها- في هذه الحالة تكون قد قتلت روحين -فأفسدنا فرحتها بالموت وأحزنا ذويها. أن تستغفر الله كل يوم لأنه قد خلقك إنسانا؛ لأنك تعيش على حساب باقي مخلوقاته دون أن تقدر هذه النعمة وتعيث في أرضه فسادًا وفجورًا..وهكذا كنت أقول لنفسي دائمًا: أستغفر الله لأني إنسان! نزل وانسل من وسطهم، تركهم مذهولين لا يعرف منهم أحد أنه شاعر بينما كان أخوه التوأم يستعد لدخول المسجد بخلع حذائه.

هوس

مساءً..فتح صفحته على الفيس بوك وكتب غاضبًا:

"فيس بوك أو صرخة احتجاج"

« الجميع يمرون..سوف يمطرونك بالتعليقات والإعجابات، لكنهم سوف يديرون ظهورهم فجأة للإعجاب والتعليق على منشورات أخرى كثيرة..لن يستطيعوا أن يتذكروك أو حتى يحفظوا اسمك وبعد قراءة بضعة منشورات أخرى سوف ينسون ماذا كانت كلمات منشورك..المجد للكتب التي تجعل الناس يتذكرون ما يقرؤون ويحفظون اسم الكاتب..المجد للنشر الورقي. واللعنة على التكنولوجيا التي جعلتنا قابعين وسط كل هذا الزحام وكل هذه

الفوضى!» في التعليقات قال لهم: أشكركم كثيرًا..وعندما كتبت ذلك لم أقصد شخصي في الكتابة فالمسألة أبعد من هذا..هي قضية كل من يكتبون على مواقع التواصل الاجتماعي، وقضية الكتابة نفسها عبر هذه المواقع، وهي أيضا قضية القراء الذين يمرون بسرعة كأنّ هناك من يركض وراءهم، كأنهم يهربون من شيء ما فلا يستفيدون مما قرؤوه ولا يتعمق وجدانهم فيه..عندي صديقة ترفض النشر في موقع أدبي، وتكتفي بالنشر على الفيس بوك، مع أن المواقع الأدبية بها متخصصون؛ سوف يمنحون الفائدة والنصيحة الواجبة لمن يكتب فيها.. ولكن حتى أنا من كنت أنصحها توقفت تقريبًا عن النشر في مواقع أدبية.. الزحام يجذب حقًا، لكنه كالحلم يذهب بسرعة، ولا يتبقى منه غير رتوش صور منسية، وتهويمات شعور خفي ينضم فورًا إلى قائمة فوضانا العقلية، غير المرغوبة بالطبع..لا يترك أثرًا عميقًا، ولا نحصل على فائدة.

وقال أنه سوف يعطل حسابه. في الصباح..وجدوه يضع عشرين منشورًا دفعة واحدة.

شغل

- إنتي ما بتشتغليش ليه يا حجه؟ (محتدة)
- هوه انا أقدر يا بنتي؟!

تقهقرت سريعًا أمام جلدها المنكمش، المحفور بالتجاعيد، وعظامها الواهنة كهيكل يكاد ينط من داخله، وسط الدعوات التي انهالت عليها بالتوفيق، وصلاح الحال، والرزق بابن الحلال!

توارت خجلة وممتنة لكل هذا الحب الكائن في أعماق عجوز طيبة ومتشردة، تحث الخطى على عجل وهي لا تعرف كيف قفز إلى ذهنها هذا السؤال الغبي فجأة؟ إنه السؤال الذي أحجمت عن أن تسأله للمتسولين الآخرين كل يوم؛ هاهي تقذفه دفعة واحدة في وجه هذه المسكينة كأنه تحويشة الغيظ!

العرافة

(١)

تأملته مليا حتى ظنّ أنها سوف تخرق وجهه، هزت فنجانه بين يديها، سعلت، صاحت: السعادة ليست سهلة، قيمة السعادة لا تقدر بسعادة أخرى! سيكون لزامًا عليك أن تمنح من يمنحك لحظة سعادة عمرًا كاملاً من الوفاء. هتف نافذ الصبر: تبًا ما معنى هذا الكلام؟ انشغلت عنه وأشاحت بيدها، ظل يلح في طلب الإجابة، التفتت إليه ونظرت كالشرر، أشارت آمرة بالخروج، مشى يذرع الممر الطويل تجاه الباب، يتلفت خلفه متوسلاً بينما صوتها الغريب الذي يزجره كان يتلاشى تدريجيا..

(٢)

هذيان الحمى يثقله، الذكريات تعتصر قلبه، وصورتها التي انطبعت في ذهنه للأبد تتراءى أمام عينيه، المرأة التي منحته لحظة سعادة واحدة عندما عشقها من أول نظرة ثم خانته مرارًا بعد ذلك، مرضت وماتت، لكنه لم يستطع نسيانها.

❖❖❖

الحنث

مع إشراقة شمس كل يوم أو بزوغ غيمه، كان يقرر بجسارة واعدة، ويقطع عهدًا شديدًا على نفسه بأن يستمع إلى نشرة الأخبار، وهو مندهش كيف لا يفعلها وفضوله يغلبه، لكنه في نهاية كل يوم كانت تهزمه عاطفته، وضعف أعصابه، وأمراض الضغط والقلب والسكر فينام حانثًا بعهده وهو يفكر: لن يؤاخذنا الله باللغو في أيمان قلوبنا!

رغبة

واقفة عند الباب؛ أرادت أن تضم المرأة التي لا تعرفها بقوة وتبكي، لكنها لم تفعل بالطبع..وتراجعت للخلف برغبتها المحبطة، وبكل المرارة التي اعتملت في داخل صدرها وهي تسأل نفسها: لماذا..لماذا دائمًا يتعين علينا أن نُفجع في الأشخاص والأشياء وحتى الأماكن التي نحبها؟ تذكرت على التوالي: موت جدها، احتراق دفتر مذكراتها لسنوات عن طريق الخطأ، دمار سوريا.

روايات

سألتها صديقتها: لماذا لا تتزوجين رجلاً من الواقع؟

لأن الرجال الموجودين في الواقع تقليديون ومملون؛ ليسوا كالرجال الذين نقرأ عنهم في الروايات.

مشكلة ثقة

الرجل عندها يساوي الأمان..

بعد أن نما بداخلها شعور بالثقة المطلقة فيه؛ أصبحت تنزعج بشدة من عرض أي متقدم لخطبتها..وترفض مقابلته؛ لأنها تعرف مقدمًا: أن درجة الثقة ستكون منخفضة أو على الأقل: ليست مطلقة!

أين

سألها: لا أعرف ماذا يجري للعرب..أين المثقفون؟

أجابته: المثقفون ملهيون ومشغولون في تشتيت الشمل العربي أكثر مما هو مشتت؛

خذ عندك كمثال: المثقفون المصريون مشغولون في إحداث الوقيعة بين الشعبين المصري والفلسطيني.

استدراج

استدرجتْها في الحديث حتى اكتشفتْ أنها مزيفة..!

تخطيط

في المساء خطط لسرقة بهجة من الحياة، لكنها في الصباح أهدته أحزانًا جديدة!

اللوحة

نظر إلى لوحة الفنان الملحد، وقف أمامها حائرًا لا يعرف كيف يُضفي عليها لمسة إيمان، غَيَّرَ الزاوية غَيْر مرة وأمعن النظر مجددًا، كاد أن ييأس لولا أن تسرب إلى بؤبؤ عينيه فجأة شعاع ضوءٍ يخرج من بين الثنايا والألوان، هناك كان الله الموجود في كل مكان مستقرًا فيها.

❖❖❖

للتواصل مع المؤلفة:

sarakaram_writer@yahoo.com

www.facebook.com /sarakaramw

www.fengantaamol.blogspot.com

شكر خاص للفنان عماد ابو اشتيه

www.facebook.com /Imad.Abu.Shtayyah

❖❖❖

الفهرس

لماذا نكتب القصص؟.. ٥
ارتطام.. ٦
الأرجوحة.. ١١
حالة برد ١٦
بطاطس... ١٩
التصميم... ٢١
السقطة.. ٢٤
الوصمة.. ٢٧
رأس على الوسادة أو أنثى الفسيفساء.................... ٣٨
في المصعد.. ٣٩
مجلات.. ٤٤
هذيان قاص قبل النوم.................................. ٤٧
وجع... ٥٢
انتظار.. ٥٣
الشهادة... ٥٨
مهدئات.. ٦٢
الكلمات... ٦٥
عواطف.. ٦٧
ذكريات تسعينية....................................... ٦٩
لافتات.. ٧٤
قرار تبنّي... ٧٨
الموعظة... ٧٩
هوس.. ٧٩

شغل.. ٨٠
العرافة.. ٨١
الحنث.. ٨٢
رغبة ٨٢
روايات... ٨٢
مشكلة ثقة ٨٣
أين ٨٣
استدراج ٨٣
تخطيط... ٨٣
اللوحة.. ٨٤

❖❖❖

الأعمال الكامله

t.me/kotbhm